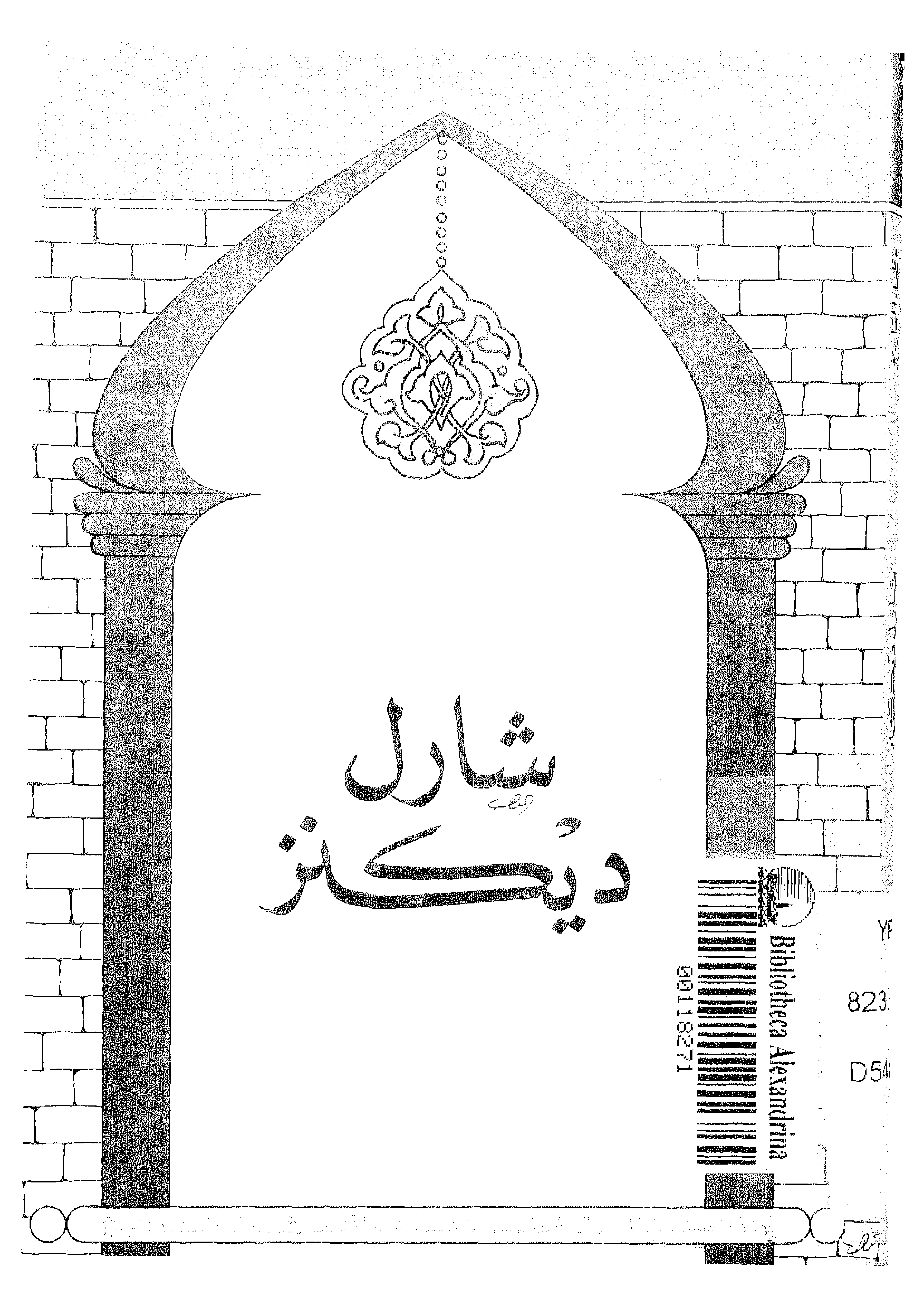
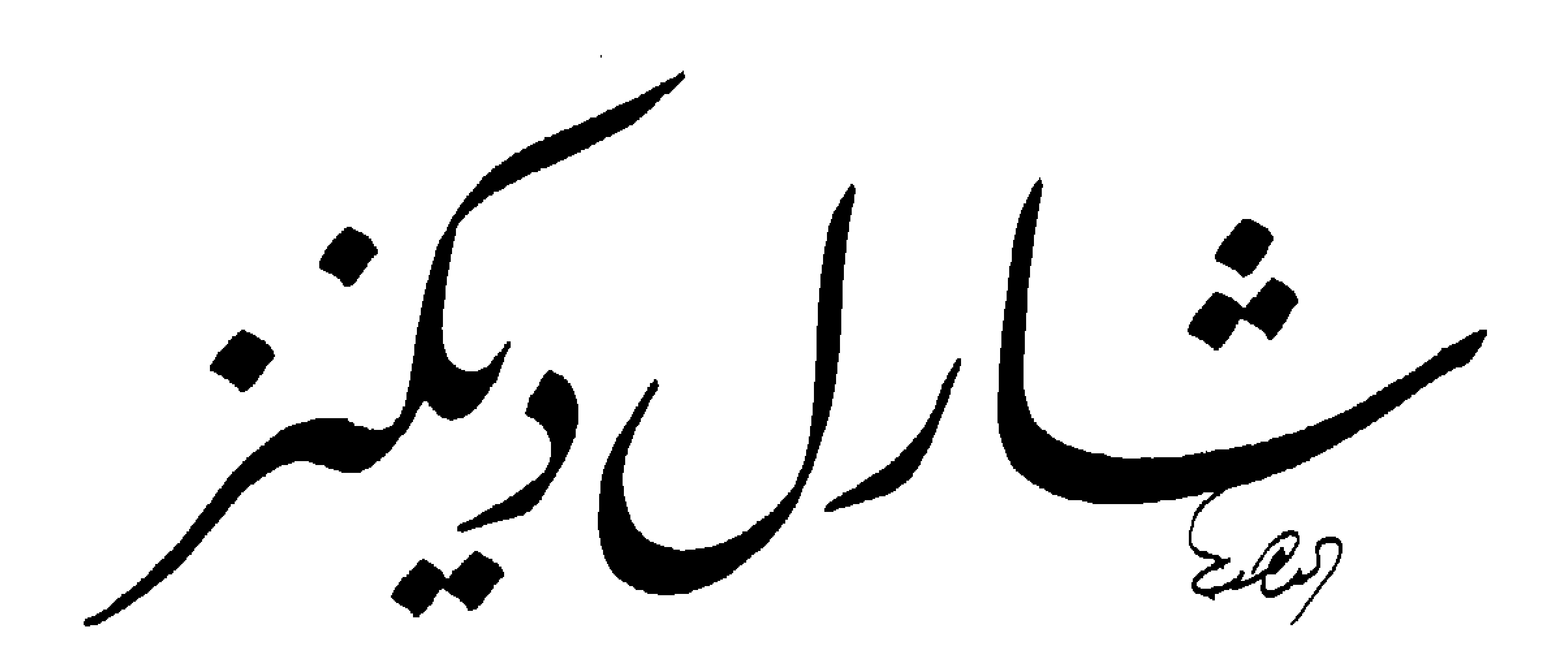

شارل
ديكنز

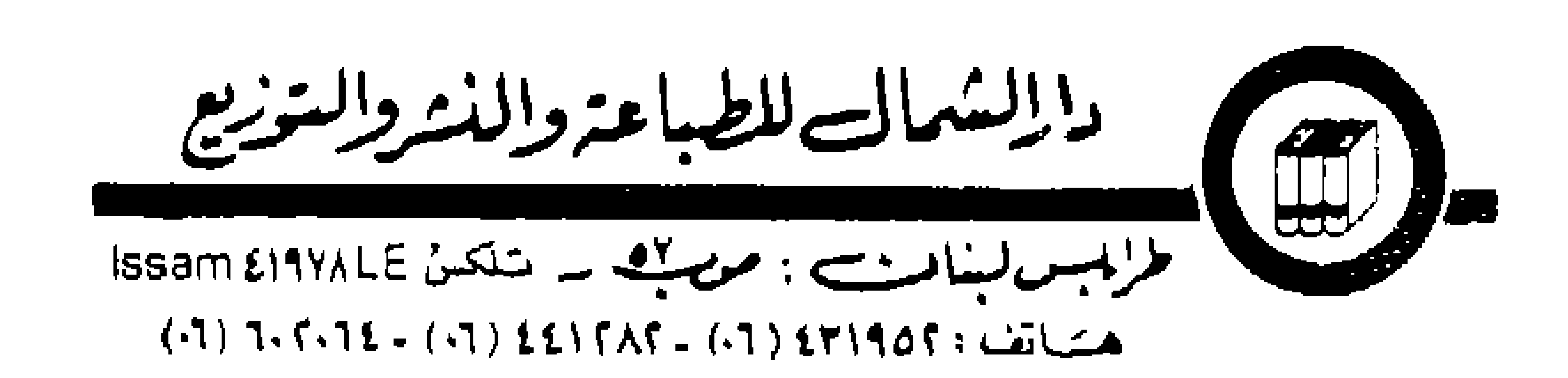
شارل دیکنز

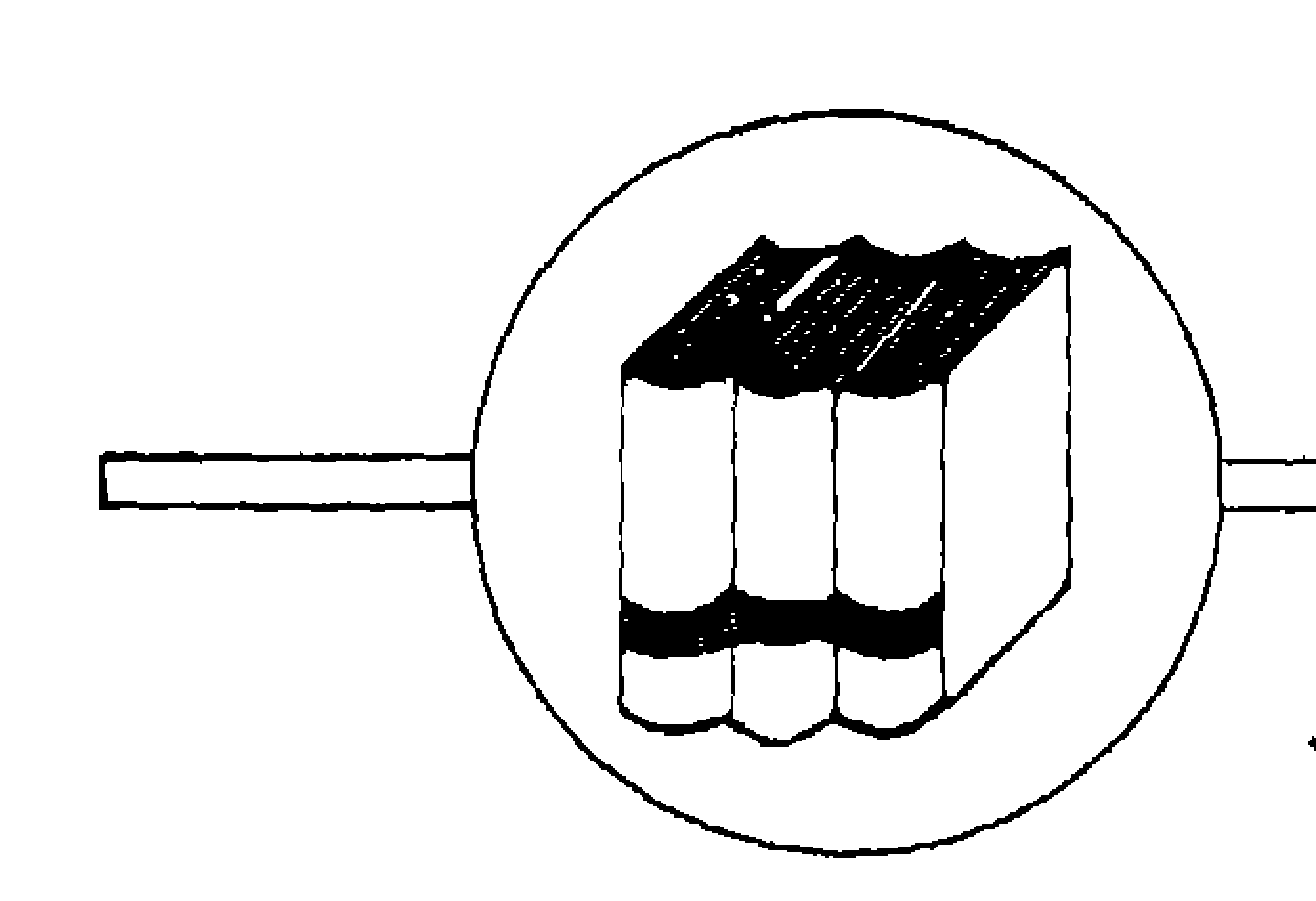
عظماء التاريخ



إعداد

سيف الدين الخطيب





دار الشمال
للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس لبنان
ص.ب ٥٧ - هاتف: ٤٣١٩٥٢/٠٦ - ٦٠٢٠٦٤/٠٦
تلكس Issam ٤١٩٧٨ LE

الطبعة الأولى

مقدمة

كثيرون هم الذين كتبوا عن بعض مشاهير الفكر والعلوم في العالم ، وأبرزوا الجوانبَ الهامّة من حياتهم ، والتي كانت وراءَ النجاح العظيم الذي حقّقوه على صعيد الانجازات الفكريّة والعلميّة . ولكنْ المؤسفَ في هذا المجال أنْ يتجاهلَ هؤلاء الكتّاب سيرةَ حياةِ بعضِ الأدباء في عصرهم مِمَّن لا يقلّون شأناً أو وزناً عن بقيّة العُظماء الذين تناوَلتهم أقلامُهم بالتَّمجيد والتَّعظيم ..

وهذا في رأيي ، كما هو في رأي الكثيرين ، إضعافٌ لهيبةِ العصر الذي كان يعيش فيه هؤلاء المَنسيُّون وتفتيتٌ لِعَضدِ التاريخ الأدبي والحضاري ، وسلخه عن بعض أجزائه الهامّة !.

وموضوع الكتاب الذي أضعه بين يَديْك قارئي العزيز ، يتناول أحد هؤلاء المشاهير والأعلام الذين أغفل ذكرَ حياتهم

معظمُ الكتّاب في عصره. « فتشارلز ديكنز » المؤلف والصحافي والنّاقد ، يُعتبر ، كما هو في اعتراف كبار المعلّقين والنقّاد، أحدَ أعمدة الفكر الأدبي في الماضي والحاضر ..

وقد اخترتُه مادّةً للبحث بين مجموعة العظماء الذين تشتمل عليهم هذه السّلسلة ، مختاراً الطريق الصّعب والشّاق في الحصول على معلومات ومراجع تتعلّق بحيـــاة هذا الإنسان الكبير في إنسانيّته ، كما في أدبه ، وذلك من أجل الحقيقة والتاريخ . راجياً أن أكون قد وُفّقت في عملي هذا بما يرضي ذوق القارىء الكريم ويرضي وجه التاريخ .

سيف الدين يونس الخطيب

مولـــده
الإنتقال إلى تشاثام

مولـــده :

في يوم من أيام الخريف الشّديدة البرودة ، في بريطانيا ، حيثُ يُلازم الناسُ منازلهم بعد الانتهاء من العمل ، اتّقاءً للبرد القارس ، واحتماءً منه في ظلّ المدفأة القـــديمة ، وُلد « تشارلز ديكنز » في بيتٍ متواضعٍ صغيرٍ من بيوت بلدة « بورتسي » التي تقع على أحدِ المرافىء البحريّة من شواطىء إنكلترا .

ففي يوم الجمعة في السابع من شهر شباط عام ١٨١٢ ، أطلّ وجهُ ديكنز على الحياة وأبصرَ النور . ورغم البرد والعواصف فقد تدفّق أهالي البلدة على بيت أبيه ليُشاركوه وزوجتَه فرحَتَهما بقدوم الطفل الجديد ، ويقدّموا لهما التهاني وللطفل الهدايا .

وكالعادة في مثل هذه المناسبات يجري الحديثُ بين الحاضرين عن الاسم الذي اختارته العائلة للوليد، وعن المستقبل الذي يجب أنْ يُعَدّ له من الآن ! ويتبارى الحاضرون في انتقاء

أجمل الأسماء ، لأنّ الاسمَ الجميـــل الذي سيحمِلُهُ المولودُ ذو دلالةٍ ومعنى ، ويحملُ مفتاحَ الخيرِ والبركةِ لمستقبـل صاحبِه ! ويَقْطَعُ الوالدُ قولَ كلّ خطيبٍ ومتنافس ، ويُخبرُ الجميعَ بأنه قد اختارَ اسمَ « تشارلز » للطفل ..

ويتبارى الحاضرون مرّةً أخرى بالتّفسير والاجتهاد لمعنى الاسم ..

فهذا يقول بأنه يَعني العظمةَ والمجد ..

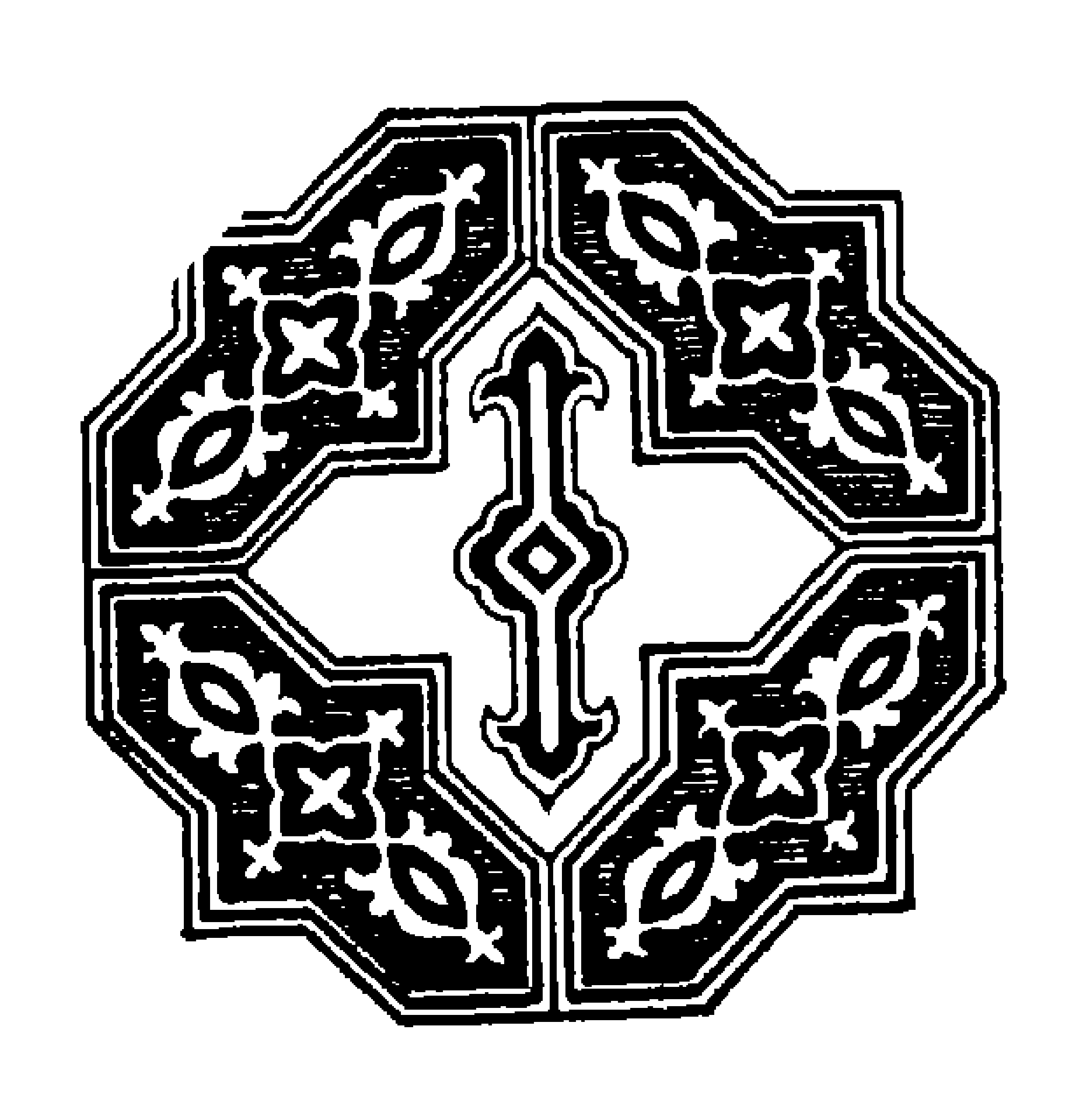
وآخر يجيب : لا .. لا .. قد يكون عكسَ ذلك .

ويقول ثالثٌ بأنه اسمُ ملوك ، ولا بـــدّ إلّا أنْ يكونَ لصاحبه شأنٌ ورِفْعة !..

ويتدخّلُ أحدُ الحاضرين رافضاً هذا المنـطق والحوار : كَفى تفسيراً وتأويلاً يا سادة .. إنكم تَرجمون بالغيب ، وتدَّعون بمعرفة المستقبل .. واللهُ وحدَه يعلمُ ما يخبِّىء المستقبلُ وما يُخفيه لهذا الطفل .. وهو لا يكافىء الناسَ خيراً بأسمائها ، بل بأفعالها .

فكمْ من اسمٍ جميل نال صاحبُه شرَّ الحيـاةِ بفِعله الشرّير ، وكم من فعل خيرٍ جلبَ السعادةَ والهنـاءَ على صاحبه الذي يحملُ أقبـحَ الأسماء .. المستقبلُ للعمل وليس للاسماء.. والله وحده يعـلمُ طريقَ كلِّ إنسان !

ويَقْتَنِعُ الجميـعُ بهذا الكلام المنطقي المعقـول ، بمن فيهم والدُ الطفل تشارلز .. وينصرفوا واحداً تلوَ الآخر مُهنِّئـين مُبارِكين ، ومتمنّين للطفل حياةً هانئةً سعيدة ، ومستقبلاً باهراً في ظلِّ عملِ الخير ورعايةِ الوالدين ..



من هو والد تشارلز:

وبعد أنْ فرغَ البيتُ من الزوّار ، يجلسُ والدُ تشارلز وحيداً في رُكنٍ من أركان البيت مُستغرِقاً في التّفكير ، وقد غَلَبَ عليه التّشاؤُم والحزنُ رغم فَرَحه بمولوده الجديـــد .. لا بلْ إنَّ هذا المولود الجديد هو الذي أسلَمَه إلى موجة الأحزان هذه ، تتقاذفُه وتتلاعبُ به لعبَ النُّكباء بالعود !

فأيُّ مصيرٍ ينتظرُ هذا القادم إلى الحياة، وحالُ والدِه من العُسْر ما لا يؤمِّنُ له الحدَّ الأدنى من حقوق الحياة !

لقد كان والدُ تشارلز كاتباً بسيطاً لدى أحد مكاتبِ الأعمال البحريّة في البلدة . وكان راتبُه لا يكادُ يكفي لسدِّ أبسطِ متطلّبات العيش !.. فماذا يفعل وحاجاتُ الحياةِ كثيرةٌ ، وثغراتُها أكثر ؟!

إنه من عائلةٍ بسيطةٍ مُوغلةٍ بالفقر والعُسْر . ومن أين يأتي

بالمال أو يَعثرَ عليه كيْ يَضمنَ مستقبلَ تشارلز ، بَلْ يضمن أنْ لا يتعرّى أو يجوع في ظلّ هذه الظروف الاقتصادية الصّعبة التي تُضيّق الخناق عليه ، وتحاصرُه من كلّ جانب ؟!

إنّ الأمرَ بالـغُ التّعقيد .. وهو لا يرى بصيصَ أملٍ في تحسُّن أوضاعه ، إنْ في الحاضر ، أو في المستقبل !

إذنْ لماذا جَنى على هذا الطفل المسكين، وجاء به مُكرَهاً إلى الحياة مشدوداً من أذُنَيْه ؟!

ألم يعرفْ قبل أنْ تَحمِلَ به أُمّه ، أنـــه غيرُ قادرٍ على تحمُّل أعبائه ، وصيانة مستقبله ؟

ألا يكفيه ما يُعانيـه هو وزوجُه من ألم العيش والحيـاة ، حتى يَضمّ فرداً آخر لأهل الألم والعذاب ؟

إنه لمْ يفكّر بهذا من قبلُ ، ولكنه أدرك خطأه الذي وقع فيه ، عندما سَمِعَ صوتَ الطفل لأوّل مرّة .. إنه كان يصرخ .. إنه كان يبكي محتجّاً على قدومه لوالدَيْن فقيرَيْن ؟

وتتلبّد سماءُ أفكاره بالحزن والأسى ، وتتكاثفُ غيـــومُ الهمّ في رأسه .

ماذا عساه أن يفعل ، وقـد جاء الطفلُ إلى الحيـاة وحصل ما حصل ؟

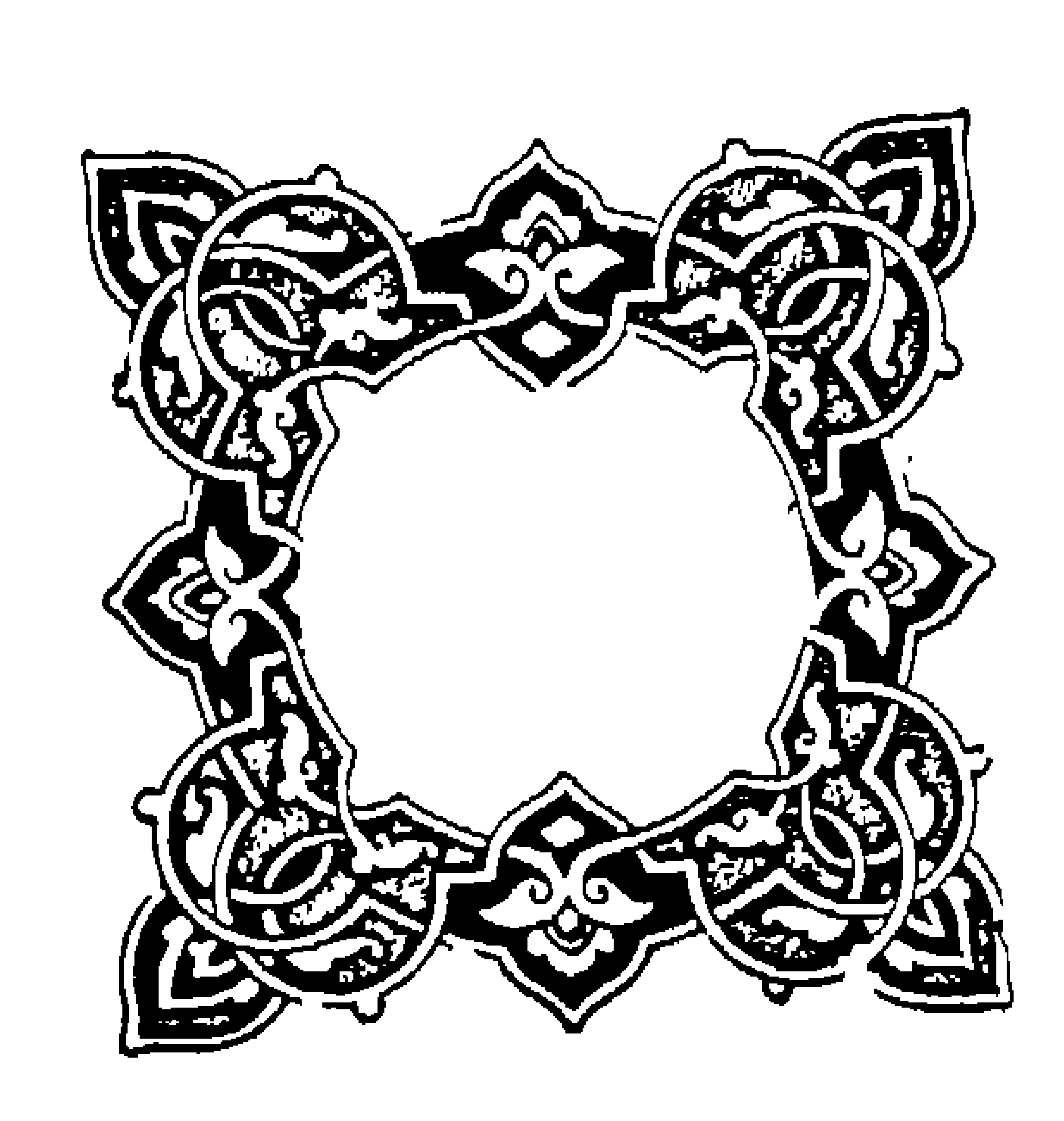
أما مِن سبيلٍ يُنقذُ وضعَه السيّء هذا ، ويبدّد ما في نفسه من قلقٍ ومخاوفَ على مصير تشارلز ؟

تائهٌ ، حائرٌ ، هذا الوالد المسكين.. لا سبيلَ أمامه ، ولا خيطَ أملٍ يَلوحُ من قريبٍ أو بعيد ليهدّىء من ثورةِ انفعالاته النفسية ، وما عليه إلا أن يستسلمَ لأمر الله ، فهو أولى بتصريف شؤونِ الَخلْق ، وتدبيرِ أمورِهم ..

وليس أمامه الآن ، وقد عجز عن إيجاد المخرج والطريق لحياةٍ أفضل ، وهو الكاتب البسيط ، إلا أن يُسلِّم للأمر الواقع ، ويرضخَ لمشيئة الله .. ويرى في هذا الاتّجاه نحو الله ، مخرجاً لما يُعانيه من ألمِ الفكر وعذابِ النفس .. فلا يَأسَ ولا قنوط

مع الله ، وهو القادرُ على تغيير وتبديل كلّ شيء في مجرى حياة الإنسان ، أيّ إنسان ..

وبهذا الفكر الأخير يتحرّرُ والدُ تشارلز من قيود اليأس والقنوط .. لقد أسْلَمَ أمرَه إلى الله ، شأنُه شأن المؤمنين بالقدرة الإلهيّة ومعجزات السماء !



الإنتقال إلى تشاثام :

وتمضي الحياة رتيبةً مملّة في بيت عائلة ديكنز ، لا جديد فيها سوى الصّدمات الاقتصادية التي تزداد سوءاً يوماً عن يوم !. فمعْ كلِّ إشراقةِ يوم جديد تتكاثرُ الحاجات والمتطلّبات ، والوالدُ عاجزٌ عن تلبية ما يُستجدُّ منها ، لا يقوى على تأمين إلا ما اعتادَ عليه في بداية العمل .. فراتبُه بقي كما هو طيلةَ فترةٍ طويلة ، كأنه لم يُنجبْ ولم يُخلِّفْ !

وكان تشارلز هو الأكثر حِرماناً في حياة آل ديكنز .. لقد حُرِمَ أبسط حقوق الحياة في الملبس والتعليم ! ولكنه لم يكن الأكثر ألماً ووجعاً على هذا الحرمان ، فقد سبقه إليه والداه المتعوسان !

في ذات يوم تلقّى والد تشارلز أمراً إداريّاً من مكتب العمل الذي يعمل فيه يقضي بنقله إلى فرعٍ آخر في بلدة «تشاثام»

ورضخ الكاتب البسيط للأمر، وانتقل بعائلته إلى البلدة الجديدة، وكان عمر تشارلز حينذاك أربع سنوات .

وهناك تسنّى لتشارلز أن يَدخل المدرسة ويتلقّى علومه الأولى..وهذا ماأدخل البهجةَ والسرور على قلبه وقلب الوالدين.

كان تشارلز رغم حداثة سنّه يُبدي تفوّقاً على أترابه في المدرسة ، وعلى الذين سبقوه في العلم في صفوفٍ أُخرى، ويُظهِر من الذكاء والنبوغ ما يدلُّ على نُضجٍ مبكّرٍ ، ونجاحٍ يُنبئ بمستقبلٍ زاهرٍ متفتّح !..

كان معلّموه يُحيطونَه بالعناية والرعاية ، ويقدّمون له كلَّ مساعدةٍ ممكنة ، بعد أن لمسوا فيه اندفاعاً قويّاً وذكاءً فطريّاً في الدرس والعلم .. وكان هو يقابل هذا الاحسان والحب بالدراسة والطّاعة .. وفي إحدى المرّات ، عندما زار تشارلز مع رفاقه في رحلةٍ مدرسيّة تلّةَ « غادشل » (وهي إحدى التّلال التي كانت يختبئ عليها قطّاع الطّرق، ويسلبون المسافرين) لاحظ المعلمون كَثرةَ أسئلة تشارلز حول قطّاع الطرق ، والأسباب التي حدتْ

بهم إلى مثل هذا التصرّف والسلوك ، والاقدام على سرقـــة المسافرين !

وحين كان يُجابُ عن أسئلته ، كان يبدو غيرَ مُقتنعٍ بها ، كأنه كان يبحثُ عن جوابٍ يدور في عقله ويفكّر بـه على غير ما يفكّر به معلّموه ! كان يريد جواباً إنسانياً يُفسّر بـــه سبب الفِعلة الشنعاء لهؤلاء اللصوص . وهنـا أدركَ مدرّسوه بأنّ مسحةً إنسانيـةً تُسيطر عليه ، وتنزعُ بـــه نحو مرابضِ الخير ووهاد التّسامح في تقدير الإنسان على الرغم من كلّ شيء ، ضمن إطار الأسباب والمعقول !

طموحه و أمانيه
سجن والده

طموحه وأمانيه :

وحين كان تشارلز يعود إلى البيت ، كان والده يرى بأنّ شيئاً ما يُشغل ذهنَ هذا الصغير .. فهو دائمُ الصّمت والتفكير كرجلٍ قد بلغ من الكِبَرِ عِتيّاً . فقد حاول والده أكثر من مرّة أن يستَوضح منه الأمر ، ويقفَ على حقيقة هذا الذي يُشغل رأسه بالأفكار والهموم !

إنّ الطريق أمام تشارلز طويل ، وأطول منه أشواكه ولسعاته !. فما باله يُغرق نفسَه منذ الآن في متاهات الحياة ، ويوخز عقله الطّري وجسمَه الغضّ بإبرها وأشواكها التي لا تشفق ولا ترحم !

فقد كان هذا الصغير يجيب والده دائماً وبأدبٍ جم ، حين كان يسأله عن سرّ تفكيره وعذابه ، بأنه لا يعي تماماً حقيقة ما يدور في خَلَدِه ، ولا يعرف كيف يعبّر عن شعورٍ يعتريه بين

الفَيْنة والأخرى ! جُلّ ما هنالك أنه حزينٌ لحال أبيه ، ويُقدِّر له هذا الدور العظيم الذي يقوم به حيال تربيته وتأمين معيشته ، وكم هو في هذا يُكابد ويناضل !

كانت عبارات هذا الصغير ، صاحب القلب الكبير في الشعور والمحبة لوالده تُثير لديه عواصف من الأشجان والأحزان!

وكم أخفى هذا الوالد دمعةً حرّى وهو يقول لولده : هوّن عليك يا ولدي .. إنّ الأمرَ بسيطٌ ولا يحتاج إلى مثل هذا التفكير الطويل المُضني .. فنحن في أحسن حال .. وغيرُنا يحسدنا على هذه الحال ؟

ويجيب الصبي والده : ولكني يا أبي أرى الكثيرين ممن يعيشون أفضل منّا . إنهم أكثر عدداً ممّن يحسدوننا . فأنا لا أحسدهم ، ولكني أطمح أن أصير مثلهم !..

ــ ستصير .. ستصير .. المستقبل لك ولنا يا ولدي العزيز . إنك طالبٌ ناجحٌ ومتفوّق ، أليس هذا كافياً لتطمئنَّ ونطمئنّ معك على مستقبل الغد !

وينتهي الحوار بين الاثنين بقبلةٍ يطبعها الوالد على جبين ولده برفقٍ وحنان ، وكأنه قد وضع فيها كلّ آماله وأمانيه ..

كان كلام الوالد يبعثُ الدِّفء والحماس أكثر في نفس تشارلز .. وها هو يذهب وحيداً إلى التلة . وهناكَ يُطلق العنان لخيالاته وأفكاره.. وتحمله هذه الأفكار إلى منعطفاتٍ بعيدة من الأوهام والآمال .. إنه يُحلِّق ويطير بهذه الأجنحة ، ويحلم أحلاماً جميلةً لا أمتع ولا أعذب !

ها هو ينظر بدهشة وإعجاب إلى البيت الشامخ العالي الذي يقع على أعلى جزء من التلة.. إنه سيمتلك هذا البيت يوماً ويعيش فيه مع أفراد الأسرة المغلوبة على أمرها ، الغارقة في الفقر والذل. إنه اليوم ينظر من تحت إلى أعلى ، وغداً ، سينظر من فوق إلى أسفل حين يُصبح مالك البيت.. سيعمل بجدٍّ ونشاط ، ويُوصل الليل بالنهار كي يشتري هذا البيت ..

وحين كان تشارلز يفيق من حُلمه ، ويعود إلى نفسه ، يرى بأنّ تحقيق هذا الحلم يبدو مستحيلاً .. بعيد المنال ..

وتتسرّب لحظات السعادة التي قضاها في الخيال المُجنّح مِن بين أوصاله ، وتُعاود روحه الهموم والعذاب ..

كانت تتراءى له أشباح الحاضر البغيض بأثوابها الرّثة الممزّقة، وهي تحاول أن تُمسك بخناقه وتمنع عنه الهواء ! ويحاول هو بدوره أن يُبعد عنه هذه الصورة المُزرية ، بالالتجاء إلى الوهم والخيال ! ولكنه كثيراً ما كان يفشل في تغيير هذا المشهد الفكري ، لأنه كان يعود دائماً إلى أرض الواقع .. الواقع الذي يحياه مع عائلته ، وما فيه من عابساتِ الدهر وقسوةِ الأيام !

وفي كلّ يومٍ كان يكبر ، وتكبر معه جراحاتُ القلب ونزيفُ الفكر .. وفي كلّ يومٍ كان يُطلُّ عليه وجهٌ جديد من وجوه التعاسة والشقاء .. كلها وجوهٌ مختلفة لحقيقةٍ واحدة : الفقر الموغل في العَظم !

سجن والده :

بلغت الضائقة الاقتصادية في عائلة ديكنز حداً لا يُطاق . وعزم الوالد على ترك تشاثام والانتقال إلى العاصمة لندن ، علّه يُصيب هناك بعض النجاح الذي أخفق فيه هنا .. لقد سَمِعَ الكثيرين يتحدّثون عن الفُرص المتاحة في لندن .. وكيف نجحَ كثيرون في التّخلص من أوضاعهم اليائسة حين وَطأتْ أقدامُهم أرض العاصمة ..

وترك تشارلز مدرستَه ، وسافر مع عائلته إلى لندن ، وهو يُمنّي النفس كوالده في إيجاد المخرج والحلّ لأزماتهم الاقتصادية. ووداعاً يا تشاثام ، وقبلَها مسقط رأسه بورتسي ! وداعاً يا فقر.. ومرحباً يا ثراء ..

الشيء الوحيد الذي كان يأسف له تشارلز لتركه تشاثام هو ترك المدرسة والابتعاد عن معلّميه الذين أحبّهم وأحبّوه ..

ولكن في سبيل العيش هذا الأمر يهون !

وهكذا استقرّت عائلة ديكنز في بيتٍ صغيرٍ يقع في أحد الشوارع الفقيرة المتواضعة في لندن ..

ولكن .. هل ابتسم الحظُّ لوالد تشارلز بعد سَحابٍ من الغمّ طويل ؟ هل وَجدَ في لندن ما جاءَ من أجله ؟ لا .. لا .. لم يجد ما كان يبحث عنه في هذه المدينة التي كانت مرتعاً خصباً لكلّ البائسين القادمين من مناطق أخرى . ويبدو أنه قد انفرد عن هؤلاء التعساء بسوء المصير .. فهُم قد وجدوا المتنفَّسَ والهواءَ الطَّلق في رحاب هذه المدينة ، وتحسّنت أحوالُهم .. وهو بقيَ على الحال الذي جاء فيه ، لا بل سار نحو الأسوأ !

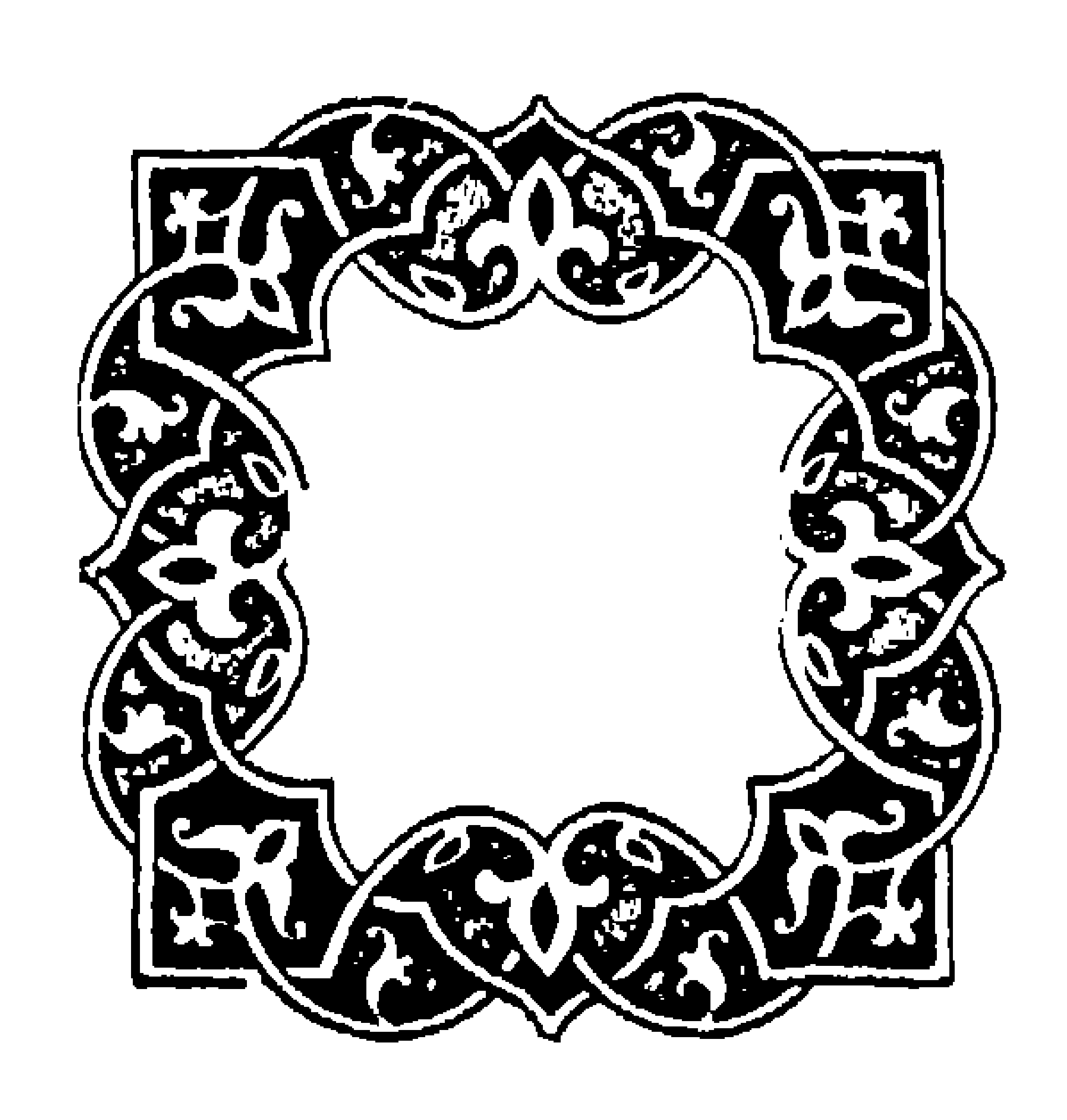
هناك في تشاثام ، كان وضعُه الماليّ سيّئاً وصعباً . ومع ذلك فقد تمكّن من إدخال ابنه تشارلز إلى المدرسة ، وتحمّل نفقات تعليمه عن طريق ضغطِ الإنفاق والمصروف .. وحين ترك البلدة إلى العاصمة ، وكان تشارلز في العاشرة من عمره ، كان يأمل في إتمام تعليمه في أفضل المدارس وأرقاها .. فتشارلز نَبْتةٌ

طيّبةٌ تَصلُحُ للسّقي والزرع والإثمار .. وها هي الشتلةُ الصالحة التي انتزعها من أرضها بهدفِ زرعِها في أرضٍ أكثرَ خصوبةً لا تجدُ مكاناً في هذه الأرض ، لأنه لا يملك المال ولا يقوى على مجابهة الحياة هنا مثلما كان يجابهها هناك . فهو لم يجد سوى عملٍ بسيطٍ جـــدّاً في العاصمة الكبيرة .. هذا هو حظُّه في الحياة ، وعليه أن يرضى بما كُتبَ له وقُسِمَ .

لم يكتفِ القدَر بحرمان هذا الصبيّ الذكـــي من دخول المدرسة وإكمال تعليمه، بل كان يُخبّئ للعائلة ما هو أمرّ وأدهى. فلم يكن معاشُ الوالد يكفي إلا لسدّ حاجاتٍ قليـــلةٍ من حاجاتٍ كثيرةٍ في المدينة الباهظة التكاليف في كلّ شيء .. لذلك نرى هذا الوالدَ ، وتحت وطأةِ الأحمال الثقيـــلة ، يضطرّ إلى الاستدانة والاستلاف من عمله ، وتتراكم عليه الديون ، ويقعُ في مشكلةِ تسديدها ، ويعجز .. ويلجأ الدائنون إلى المحاكم .. ويَقضي الحاكمون بسجنه وبيع ما يملك من الأثاث الفقـــير في المزاد العلني .

لقد كانت هذه الصّدمة العنيفة بمثابـة الصّاعقة المدمّرة الـتي تسقط على رؤوس العائلة .

ألم يكفِ هذه العائلة سلسلة المصاعب والصدمات الـــتي توالت عليها طوالَ سِنيِّ حياتها، حتى تجيء هذه الصدمةُ الكبيرة لتُتوِّجَ حيـاةَ القهر والذل ، وتضعَ إكليلاً من الشوك والقَتاد ، مكافأةً لها على صبرها وليلِها الطويل ؟!



تشارلز يبدأ حياة العمل
إبتسام الحياة
خروج والده من السجن

تشارلز يبدأ حياة العمل :

لقد كان لهذه الضربة المُوجعة، التي قَصمتْ ظهورَ العائلة ، أثرها السيّء في نفس تشارلز .. فبالأمس كان يسبحُ في بحر الألم وهو يقفُ بعيداً على الشاطىء ، لم تلامس المياه المُغرقة سوى فكرِه وخياله .. وكان يتألّم ويتوجّع من جرّاء هذا الفكر والخيال . واليوم ، وبعد سِجن والدِه ، وغياب المعيل الوحيد للدّار ، يقفزُ من على شاطىء الألم ويجد نفسه في منتصف اليمّ تُحيطُ به المياه المُغرقة من كلّ جانب !..

ماذا ستفعل العائلة ، وكيف ستتدبّر أمرَها ؟ لم يبقَ في ساحة العائلة سوى هذا الفارس الصغير « تشارلز » .. ولم يكن أمامها سوى أن تقذِفَ به إلى ميدان معركةِ الحياة يُناضلُ ويُكافح من أجل الحصول على الطّعام والرّغيف في بلدٍ غريب .

وكان تشارلز هو نفسُه يشعر بهـــذا ، وليس من امتشاقِ حُسام العمل مَفَرٌ .. وها هو يخوض التجربة في سِنٍّ مُبكِّرة ، ويَدخل ميـدان العمل . ويَعرِضُ عليه أحـــد الأقرباء ممّن يشتغلون في الأعمال وظيفةً حقيرة يُرغمُ على قبولِها . كان عليـه أن يُلصِقَ بالعجينة ذات الصِّباغ الأسود العلامات التجاريـــة والعنـاوين على الجِرار في مخزنٍ صغير لا يمكن أن يُوصف إلا بزريبةِ الحيوانات ، ليس فيه مُتنفّسٌ إلا من طاقـــةٍ زجاجيّة صغيرة . وكان يُدفع له لقاء عمله هذا ستّة شلنات في الأسبوع !

كان يُجهد نفسه في العمل طيلة الأسبوع مُتحمّلاً كلّ شيء : الجلوسُ ساعاتٍ طويلة في ذلـك المخزن الزريبة في جوٍّ خانـقٍ يكاد ينقطع فيه هواء التنفّس .. الانقطاعُ الطويل عـــن العالم خلال ساعات العمل وحيداً منفرداً في زنزانته الـتي حَكم بها على نفسه راضياً مُختاراً .. طبيعةُ العمل المُزري الذي لم يكن يتلاءم مع طبيعةِ روحِه الشفّافة وكبريائه الإنساني ، وطموحه الكبير ! كلُّ هذا ، قَبِلَ به ، من أجل الحصول على دراهمَ بخسةٍ معدودة

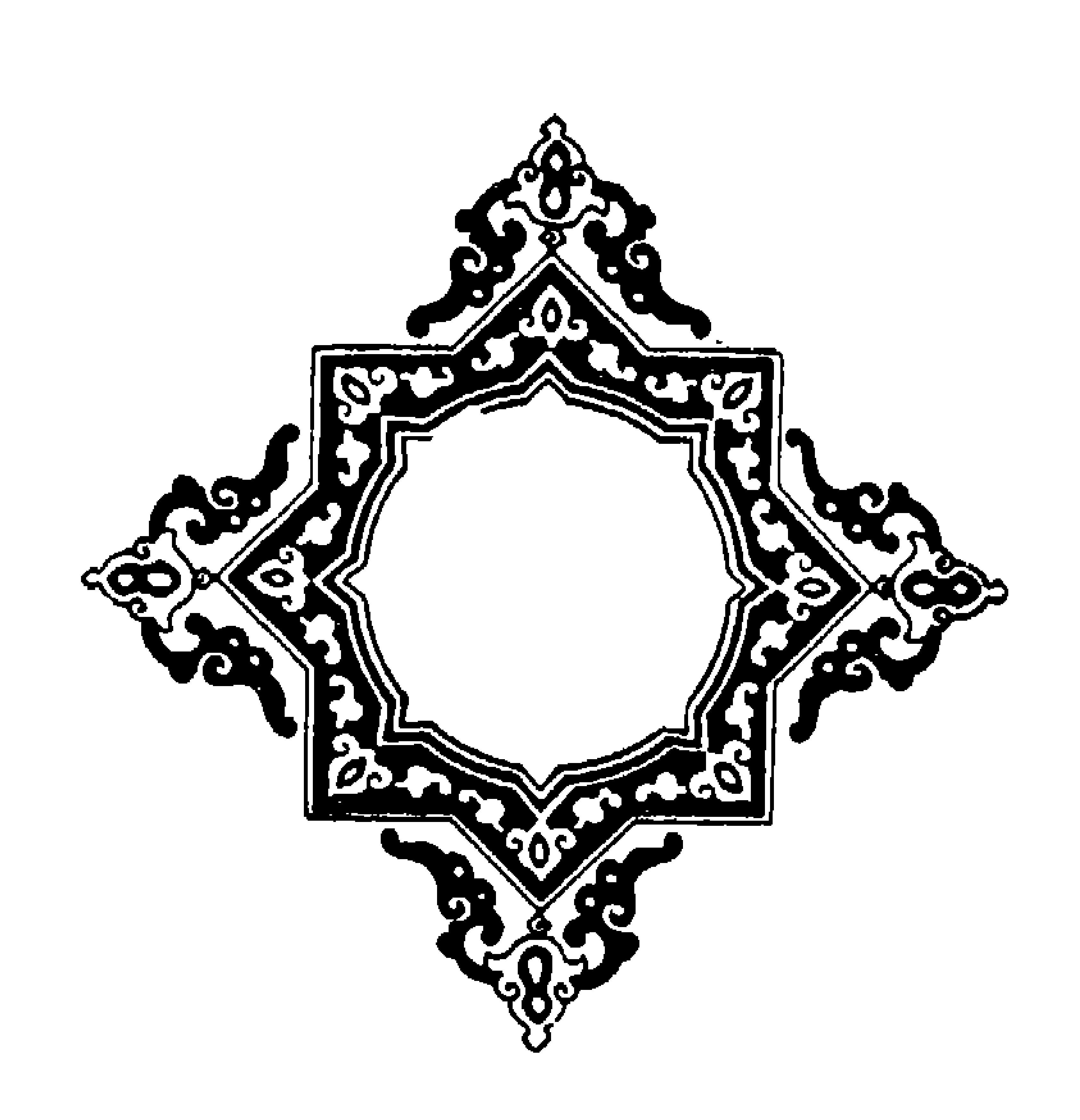
لم تكن تكفي إلا لسدّ ثغراتٍ قليلةٍ جداً من ثغراتِ الحياة الكثيرة الواسعة .

لم يكن حالُ البيت الذي استأجره للعائلة بعد سِجن أبيه ، وطردِهم من البيت الأول ، بأفضل من حال زريبة العمل التي كان يقضي فيها أكثر ساعات نهاره .. وكثيراً ما كان يغيِّر السّكن ، وينتقل إلى سكنٍ آخر أشدّ بؤساً وأكثر حقارة .. لا لشيء إلا لأنه كان أرخصَ إيجاراً ، وأقلّ تكلفة !

مرّت سنتان ، وتشارلز وعائلتُه على هذه الحال من الضائقة الشديدة والأزمة الخانقة . سنتان لم يجد فيهما ما يكفي لسدّ حاجات الطعام .. الطعام فقط ، وهو أُولى حاجات الإنسان . وكم من مرّةٍ جاعَ ونامَ على الطّوى !

عامان كاملان قضاهما تشارلز ديكنز وعائلتُه في ذُلٍّ وهوان ، وجوعٍ وحرمان . لقد كانا من أقسى الأعوام ، وأشدّها فتكاً بالروح والجسد . هذان العامان تركا بصماتٍ

لا تُمحى في حيـاة تشارلز فيا بعد ، وكانـ لهما تأثيرٌ بالغٌ على مستقبله .. بهما تفجّرت كلُّ أحقـادِ السنين وآلامِها وعذاباتها ، وتجمّعت كلُّ سُحبِ الحياة الداكنة السوداء ، لتَهطِلَ دمعاً وأسى تَزيد من جراح الأيام وتُعمّقها .



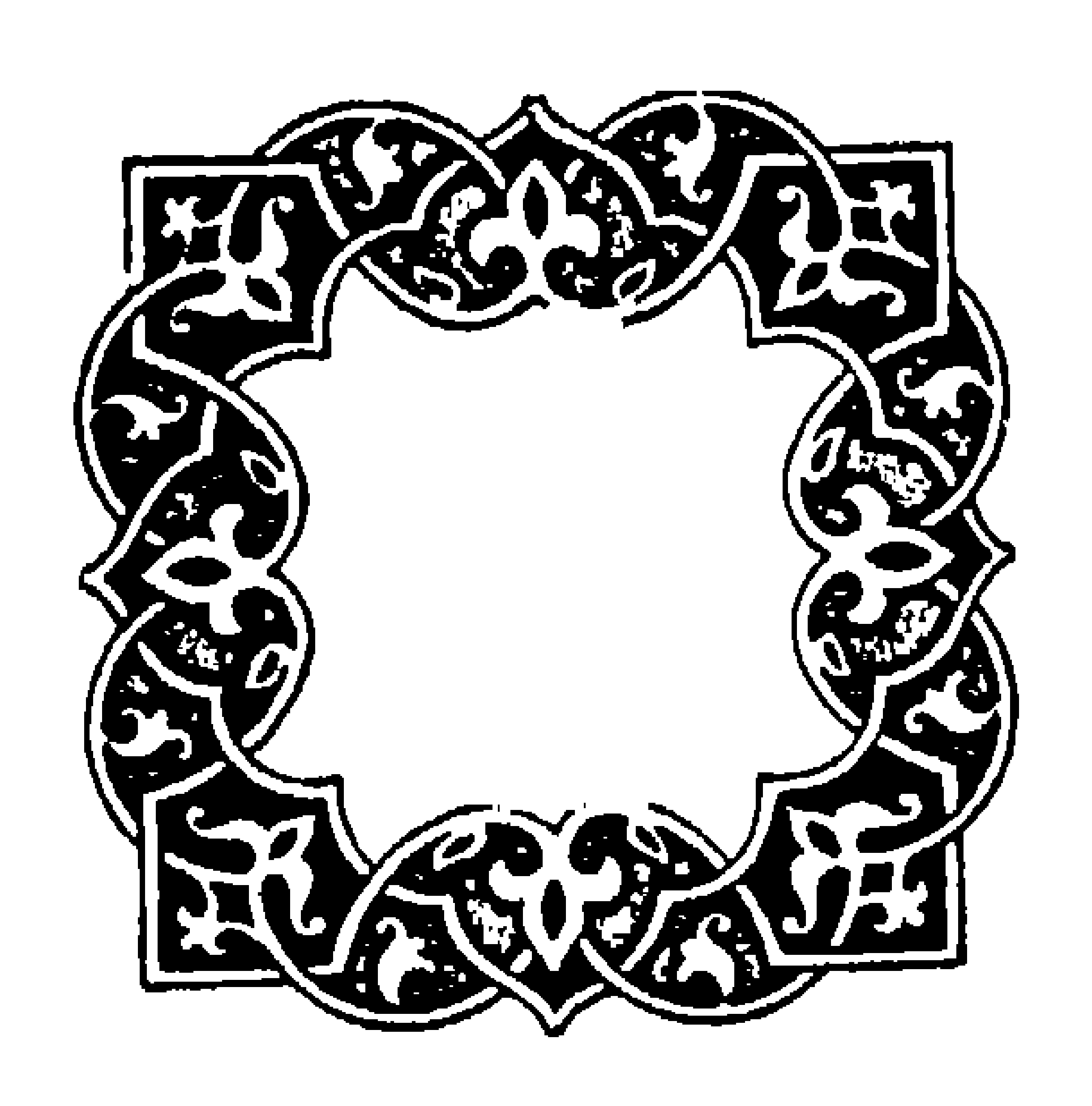
إبتسام الحياة :

لقد كانت هذه الأيام الصّعبة التي مرّت على تشارلز وعائلته حافزاً قويّاً دفعتْ هذا الصبيّ الحالم إلى التمسُّك أكثر بأحلامه وخيالاته . ولم تكن هذه الأعوام القاسية الظّالمة ، وعلى رأسها عاما « أمُّ الجراح » بعد سجن والده ، لِتُوهنَ أو تُضعفَ من قوّة العزيمة والشكيمة لدى تشارلز ، بل لِتَزيدَه إصراراً وثباتاً على مواصلةِ معركةِ الحياة والانتصار ..

والحقيقةُ أنّ هذه السنين ، ولا سيّما الأخيرة منها ، رغم عُنفها وضراوتها ، أفادت تشارلز وفتحت أمامه آفاق المستقبل المشرق السعيد ..

إنْ فَقرَهُ المدقِع ، جعله على صلةٍ واقترابٍ من جميع

بيوت الفقراء في الأحياء الفقيرة التي عاش فيها .. كان دائماً وبحكم الاتصال والجوار يطّلع على أنماط حياتهم ونماذج عيشهم.. آمالهم ومخاوفهم ... وكان لهذا أثرٌ عظيم في أعماله عندما أصبح مؤلّفاً عظيماً فيما بعد .



خروج والده من السجن :

في الوقت الذي كان فيه تشارلز ووالدته حائرَيْن حزينَين يفكّران بطريقةٍ تُنجيهما من عذاب الفقر وسعير الحياة ، تَهبط على الوالد السجين ثروةٌ ماليّةٌ ـ لم يَذكُر أحدٌ مصدرَها ـ تمكّنه من تسديد ما يترتّب عليه من الديون ، ومن ثم الخروج من السجن !

وفي عودة والد تشارلز إلى البيت ، تُطلِقُ الحياة بسمتَها الأولى في وجه العائلة الذي ما عرف إلا الحزن والعبوس . ويعرف الجميع معنى هذه البسمة وما تُخفي وراءها من بَسمات .. لقد تَعِبَ الجميع من عناء السّفر الطويل في مشوار حياة العذاب وآنَ لهم أن يستريحوا وينعَموا بالسعادة مثل بقية الَخلق والناس.

كان أول عمل أقدم عليه الخارج إلى الحرّية من وراء قُضبان السجن بعد سنتين ، إخراج ولده من غياهبِ السجن

المختار في العمل، وإدخاله في مدرسةٍ خاصّةٍ يُتابع فيها ما انقطع من أوصال الدرس حين ألمّت الضائقاتُ وأحكمت قبضتَها على رقاب العائلة !

وها قد عاد الأملُ من جديدٍ ينعشُ الحياة في نفس تشارلز والعائلة التي كانت ترى فيه خيرَ المستقبل وترتجيه ..

ويبدأ الصبيُّ المحروم من نعمة العلم ، وهو الراغب فيه والساعي إليه دوماً ، يبدأ بالدراسة والسهر بنهمٍ وشوق إلى الكتب والوظائف ، محاولاً أن يعوّض ما فاته من علمٍ ودروس في سنوات الحرمان.. ويعبُّ من ماءِ العلم عبّاً ، وينهلُ من ينابيع المعرفة الشيءَ الكثير دون كللٍ أو شعور بالتعب .. وكان كلما ازداد عِلماً ومعرفةً يزدادُ ظمأً وعطشاً ، ويطلب الارتواء أكثر ويقول هل من مزيد .. فهو يريد أن يُسارعَ الزمن ، ويَسبقه ، ويتغلّب عليه ..

التخرج وبداية الشهرة
النجاح العظيم

التخرج وبداية الشهـرة :

ويقضي تشارلز أياماً دراسيةً سعيدة هي في غايـــة البهاء والجمال . لم يكن يُشغله في هذه المرّة عن الدرس أيُّ شيء مثلما كانت تُشغله الأفكار في السابق . لقد تحسّن حالُ أبيـه بعد المال الذي أصابه ، وتأمّنت له أسبابُ الحياة وسبلُ العيش ، فلقـد كانت نفسُه هادئةً .. مطمئنّةً .. مرتاحة . لذا نراه يُنتجُ ويُثمر ، وتتفتّحُ أوراقُ ذهنِه بياسمين العلم وأزاهير المعرفة .

وتمرُّ السنوات سريعةً كلمْحِ البصر .. ويُتمُّ تشارلز علومَه الثانوية ويتخرّج من المدرسة شاهراً سلاح الحيـــاة .. ويعمل كاتبــاً لدى أحد المحامين .. ويدرسُ علمَ الاختزال في وقت فراغه . وعندما يَبلغُ التاسعة عشرة من العمر ، يـتركُ مـكتب المحامي ، ويتّجه نحو العمل في الصحافة. ويُصبح محرّراً في إحدى الصحف .

ويُكلَّفُ تشارلز بملازمة مجلس العموم البريطاني (مجلس النواب) لتزويد الصحيفة بالأخبار وتغطية وقـائع الجلسات العلنيّة . وكثيراً ما كان يُرسَلُ في مهمّات وجولاتٍ صحفية داخلَ البلد ليكتُبَ بعضَ التحقيقات والريبورتاجات الصحفية عن سير الإجراءات والأعمال الحكومية.. ويكتسب تشارلز من خلال عمله هذا الخبرات والتجارب . ويظهر هذا جليّـاً واضحاً في بعض رواياته .

فتجاربُه وخبراته « على الطريق » كما أسماها بعضُ الكتّاب الذين كتبوا نبذةً قصيرةً عن حيـاة تشارلز ديكنز ، تُطلِقُ شرارةَ الأدبِ الأولى في الكتابة الأدبية عنـده . ففي هذا الوقت كَتبَ تشارلز ديكنز قطعةً أدبيـةً قصيرة وقّعها بإمضاء « بُزْ » . ولقيتْ هذه المقطوعة قبـولاً ، ونُشرت في إحدى المجلات الشهرية .

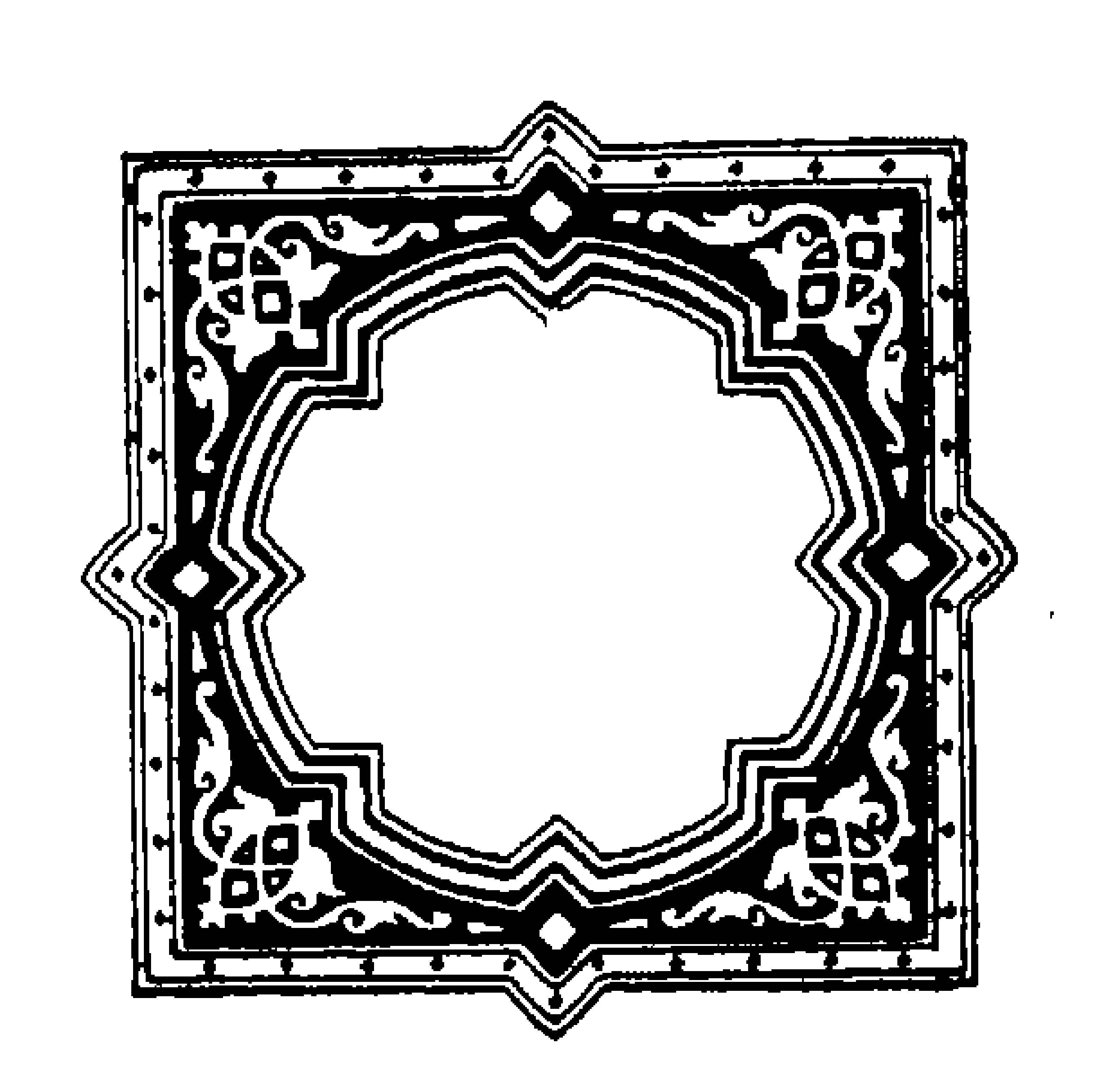
وحين لقيتْ هذه القطعة الأدبيـة نجاحاً ، أتبعها تشارلز بتسعِ مقطوعاتٍ أخرى مشابهة ، نُشرت كلها .. وأخيراً رأى

أنْ يُتابع كتابة هذه السلسلة في صحيفة أخرى حيث نالتْ إعجاب القرّاء وراقت لأمزجتهم .. فقد كانت هذه الكتابات من نوعٍ فريد يتحلّى كاتبُها بروحٍ سلسة طيّبة. وبها وقف تشارلز على أولى درجات سلّم الشهرة الأدبية .. لقد بدأ يَلفتُ الأنظار من حوله ، ولا سيّما أنظار الناشرين الذين بدأوا يتّجهون إلى التعامل معه وعقدِ الصفقات .

حتى إنّ إحدى كُبريات المؤسسات للناشرين طلبت من تشارلز ديكنز أن يكتبَ لها تعليقاتٍ على مجموعةٍ من الصّور المسلّية اشترتها خصّيصاً للنشر . وفي هذا العمل كان ميلادُ الصحف الفكاهية الشهيرة التي أُطلِق عليها اسمُ « بِكْ وِكْ » .

وفي العدد الخامس قدّم الكاتب الساخر ديكنز موضوعاً بعنوان « سام ويلر » . وأصبح « سام » هذا رمزاً لكتابات ديكنز لدى الجمهور . وكثيراً ما كان يتناقل القرّاء أقوالَه المضحكة، ويقتبسون العبارات والجمل التي جاد بها يَراع الناقد اللاذع ، ويُبدون دهشتَهم وإعجابهم بها وبكاتبها .

لقد ذاع صيتُ هذا المسلسل واشتُهر بين الناس، وأصبحوا يعشقونه، وينتظرونه انتظارَ العاشق المتيّم لحبيبته. فهو رغم كونه موضوعاً اجتماعياً مسلياً يَبعثُ على انشراح الصدر وانتزاع البسمات والضحكات حتى عند الذين لا يعرفون البسمة والضحك، فقد كان يحمل في طيّاته بعضَ المعاني والأفكار الهادفة!.. فهو يتحدّثُ عن شخصية سام ويلر بشكلٍ يُثير الضحك ويَبعثُ على الإشفاق في آن واحد!



النجـــاح العظـــيم :

وإزاء هذا النجاح العظيم الذي حقّقه هذا المسلسل الفكاهي قام أصحاب مؤسسة الناشرين بجمعِ كلّ الكتابات والتعليقات في مُجلّدٍ واحدٍ طُبعَ منه أربعمائة نسخةٍ وُزِّعتْ في ســـــوق المكتبات ، وكانت النتيجةُ مُذهلةً جـــــدّاً حين نفدتْ هذه المجلّدات بسرعةٍ فائقة دَفَعَ دارَ النشر إلى طبعِ وعرضِ المزيد منها استجابةً للطّلب ، وبِيعَ منها أكثر من أربعين ألف نسخة !

ولم يَدَعْ ديكنز هذه الفرصة الذهبية تَفلت من بين يديه ، وهو يرى النتائج المشجّعة جداً لعمله المُخصِبِ المثمر، فقد سارع إلى إلحاقها ، وإتباع هذا النصر بنصر آخر . فقـد استهلّ عهدَه في كتابة الروايات ، واقتحم أخدارَها الأدبية وأسوارها العالية محقّقاً في ذلك أعظم الانتصارات .

إنها فرصتُه المؤاتية في الكسب وتحقيق الذات . فليغتنِمْها

قبل فوات الأوان . فالسوق هو سوق تشارلز ديكنز .. وكلُّ طبعةٍ تحملُ هـذا الاسمَ كانت تتصدّر رفوف وواجهات المكتبات .. وتُرى في بيوت القرّاء وبين أيديهم .. بل هي كانت الهديّة الغالية التي يُقدّمها الناس في المناسبات .

وها هو يسهر حتى ساعات متأخّرة من الليل مُنكبّاً على تأليف الروايات، ويستيقظُ باكراً جداً ليُكملَ ماتوقّف عنده في آخر الليل . إنه يبدو في نشاطٍ دائمٍ وحركةٍ لا تهدأ في كتابة الروايات . إنه يريد أن يَسبقَ الزمن ليُعوِّضَ ما فاته منه !

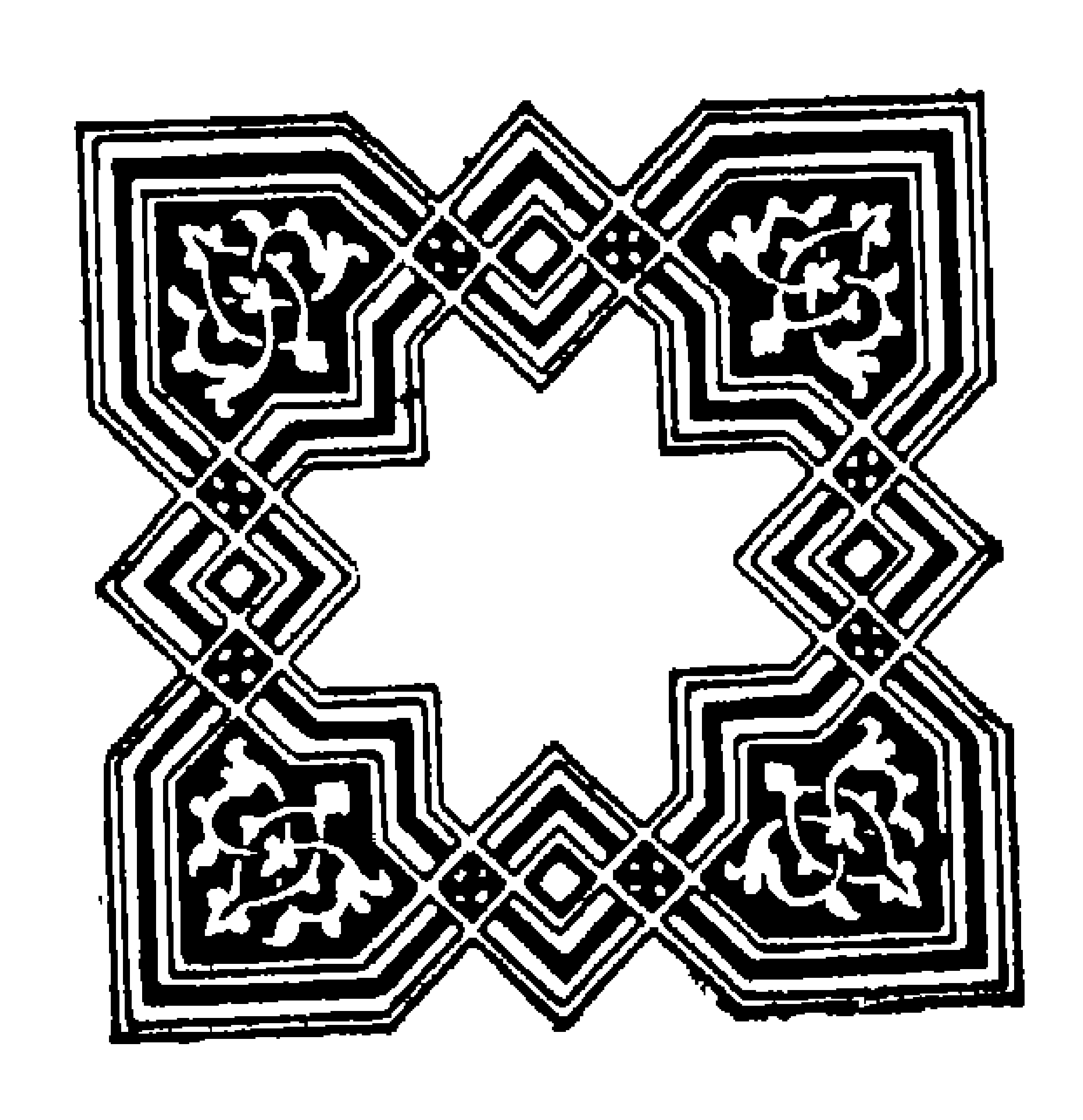
إنه يريد أن يُسابق آلة الطباعة ، وأن يلحق بالسوق قبل أن يُديرَ له ظهرَه ويَغرب عنه .. رفيقُه القلمُ وصديقه الورق . وصديقُ القلمِ والورقِ أفكارٌ مخلصةٌ وفيّـةٌ تنسابُ انسيابَ الماءِ العذب ، وتنسالُ انسيالَ النّبع الثرّ .

ويَضخُم رصيدُ الإنتاج الفكري والأدبي لدى ديكنز الشاب الطموح . ومن هـذا الرصيد : « أوليفَر تْوِسْت » ، « نيكولاس نِكِلْباي » ، « ذي أولد كيورْ يوزِتي شوب » ،

و « بارْنابي رَدْجْ » .

« أوليفَر تْوِسْت » لم تكن مألوفةً جداً لدى الجمهور . أمّا « نيكولاس نِكِلْباي » و « ذي أولد كيورْ يوزِتي شوب » فكانتا من أبرز نجاحاته في بداية عهد الروايات .

و يُصاب ديكنز بحمّى الكتابة والتأليف .. فهو لم يَعُدْ يلتفتُ إلى أيِّ شيء سوى الكتابة والمزيد من الروايات .. وها هو يختالُ ويزهو على ظهر النجاح الذي تسلّقه بسرعة ، ويطلبُ مزيداً منه .



مرض ديكنز :

ولكن لهذا النجاح ولهذه الشهرة ثمن ! وكان الثمنُ باهظاً.
فقد أُصيبَ ديكنز بمرضٍ خطير وقفَ الأطبّاء حياله عاجزين وكاد يَقضي عليه ! لقد سقط الفارسُ من على ظهر الفرس بعدما أعياهُ السّفر الطويل في صحراء العمل دون توقّفٍ أو استراحة!
فديكنز لم يرحم نفسه في العمل ، مُعتمداً على قـــوّة شبابِه وصلابة عوده . ولم يكن يدري أنّ لبأسِ الشباب حدوداً ..
وهو قد تجاوز هذه الحدود !

ويَأمرُ الأطبّاء ديكنز بالخلود إلى الراحة وعدم القيام بأيّ جهدٍ فكريٍّ أو عضلي إنْ هو أراد الحياة .. ويلتزم ديكنز بأمر الأطباء ، فهو يريد الحياة .. الحياة الحلوة الهادئة الخالية من الأمراض والمتاعب.. أوَلَمْ يكافح هو كثيراً في سبيل هذه الحياة وبلوغ بابِها العالي ؟

نعم .. نعم .. هو فعلَ كلَّ هذا من أجلها . من أجل أن يحياها عزيزاً كريماً ، لا تصفعه الأيام بمثل ما صفعتْ به وجهَ والده ، ووجهَه في بداية حياته .. ولكنْ ما كلّ ما يتمنّى المرءُ يُدركه !.. فهو أراد أن يتخلّص من الفقر ، فكان له ما أراد ، ولبس ثوبَ الغنى . أراد أن يعانقَه ثوبُ الحياة ، ففعل ، أو هكذا تهيّأ له . ولكنه صحا اليوم مخدوعاً مذعوراً : لم يكن هو الشّوق الذي يعانقه ، بل الشّوكُ والأشواكُ !!

وبعد راحةٍ مفروضةٍ ، امتثل فيها لكلّ أوامرِ الأطباء ، بدأ ديكنز يتماثل نحو الشفاء .. الشفاء الحذِر . فقد أوصاه أطباؤه بأن لا يستغلّ فرصة تحسّن صحته ، فيعودَ إلى سابق عهده في إنهاك جسدِه وفكره ، ويتعرّضَ إلى نكسةٍ صحّيةٍ أخرى قد لا تكون سليمةً في هذه المرّة . وبصراحة ، فقد بيّن له الأطباء أنّ صحّته في خطر ، وأنه قد يتعرّض للموت إنْ هو قسا على صحّته وأجهَد فكرَه بالعمل الصّعب .. وأوضحوا له أنّ العمل الشاق الذي مارسه في الليل والنهار كان السبب الرئيسي

في انحراف صحّته ، بل ودفعه دفعاً قويّاً نحو مهاوي الردى لو لم تتداركه العناية الإلهيّة في آخر لحظة ..

لقد كشف له الأطباء معالمَ الطريق في وضعه الصحّي . وحذّروه من مغبّة الاستمرار في عكس الاتّجاه الذي تتطلّبه نصائحهم وإرشاداتهم. ورسموا له الحدودَ التي ينبغي أن يتوقّف عندها ، ولا يتخطّاها. وإلا .. فعيونُ الموتِ ترصُدُه وتنتظرُ منه الوقوعَ في الخطأ والتقدير !

ووَعدَ ديكنز أطباءه التزام جانبِ الحذر ، واتباعَ نصائحهم وإرشاداتهم .. وسافر بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أول زيارة لها . وكان هذا في عام ١٨٤١ .

واعتقد ديكنز أنه يزورُ أمريكا لأول مرّة في حياته . ولكنه عندما وصل إليها وجد أنه يعرفها وهي تعرفه أكثر !.. كيف هذا ، وهو لم يأتِ إليها من قبل ؟!

الحقيقة أنّ كُتبَ وروايات ديكنز قد سبقته إلى هناك

وأعجب بها الأمريكيون وبمؤلفها . وحين استقبله الناس هناك استقبلوا فيه الكاتبَ والناقدَ والأديبَ الكبير . فكان موضعَ حفاوةٍ وتكريم أيـنما حلّ . وأُقيمت على شرفـه المآدب والحفلات .

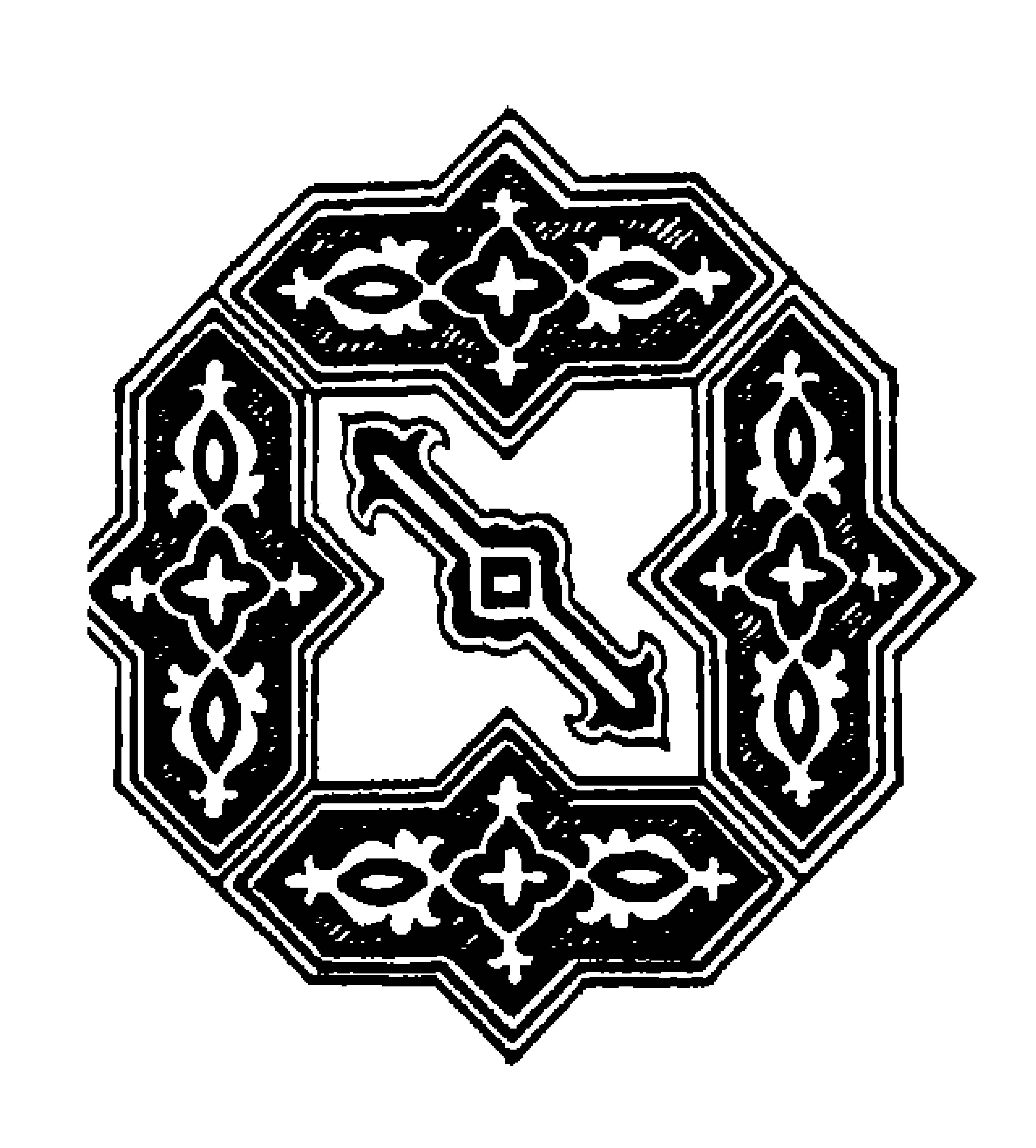
وفي طريق عودته من الولايات المتحدة الأمريكية . دوّن ديكنز ملاحظاته وانطباعاته عن الشعب الأمريكي، وقام بنشرها في لندن . لقد أزعجتْ هذه المذكّرات والانطباعات عدداً كبيراً من الأمريكيين ، لأنها ـ وكما يُعتقد ـ لم تكن تحمل سوى النواحي السلبية عن حياة وسلوك الشعب الأمريكي .

وحين استقرّ بـه المقام مرّة أُخرى في وطنه ، وشعر أنـه لم يعُدْ يشكو سوءاً في صحّته ، استأنفَ نشاطه السابق ، مُتجاهلاً نصائحَ الأطباء وما وعدَهم بـه حين كان مريضاً . فكَتَب تُحفتَه الأدبيّة « أُغنية عيد الميلاد » : « كريسماس كارول » التي حقّقت نجاحاً مُدهشاً للغاية . .

وفي عام ١٨٤٦ أصبح ديكنز رئيسَ تحرير صحيفة «الدّيلي

نْيُوزْ » . ولكنه سرعانَ ما ترك هذا المنصبَ ليُغادرَ إلى سويسرا بعد أن شعرَ بالتعب والإرهاق . وهناك في سويسرا حيث الجمال والهدوء والطبيعة الأخّاذة ، كتب رواية « دومْبي أنْدْ صَنْ » ونجحت نجاحاً عظيماً .

وفي عام ١٨٤٩ بدأ ديكنز بنشر روايته الشهيرة جداً « ڤافيد كوبرفيلد » . كما أصدر صحيفةً أسبوعية « هاوْسْ هولْدْ وُورْدْزْ » ، كان هو يحرّرها .



تحقيق حلمه القديم
وفاته

تحقيق حلمه القديم :

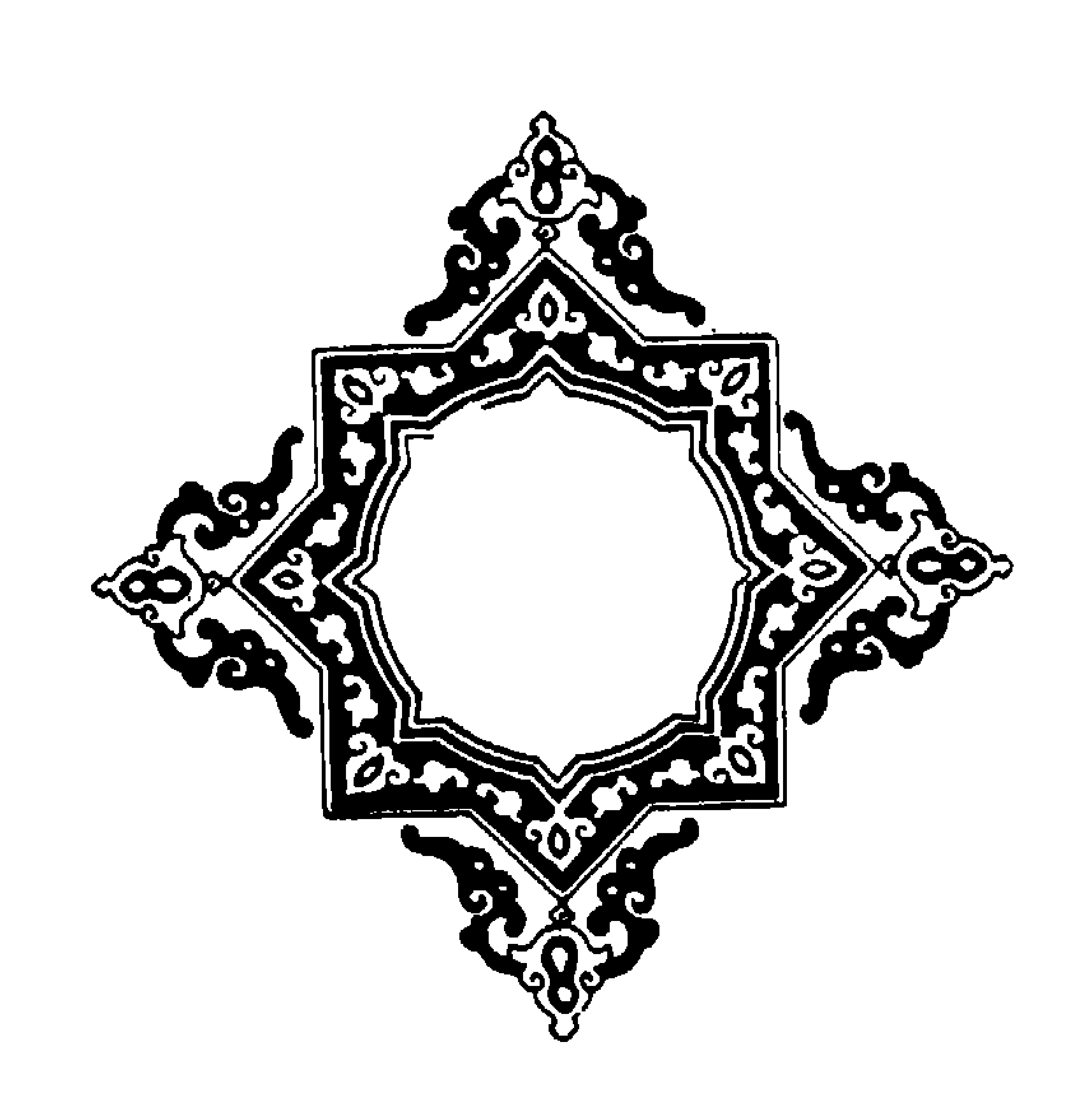
أصبحَ ديكنز على حالٍ من اليُسْرِ عظيم . فقد تجمّع لديه مالٌ كثير ، واستطاع من عمـــلِه في الصحافةِ وَبَيْعِ المؤلّفات والروايات أنْ يحتلّ قمّةً عاليةً من قِمَمِ الثّراء والغِنى.. وها هو يصلُ إلى مبتغاه وما كان يأمل من الحياة .

وتعاودُه ذكريات الماضي وأحلامُه ويتذكّرُ تلّةَ « غادشل » ويتذكّرُ البيتَ العالي هناك . ويتذكّرُ كيف كان ينظر مـــن أسفل إلى أعلى . ولقد آن له الأوان كي ينظرَ من أعلى إلى أسفل من على شرفة البيت . ويتوجّه إلى « غادشل » ويشتري البيتَ الشاهق محقّقاً في ذلك حلمَ الطفولة المبكّرة .

وفي عام ١٨١٦ ، وكان عمره آنذاك أربع سنوات ، رأى ديكنز هذا البيت لأول مرة وأعجب به وصمّمَ على شرائه .. وها هو العام ١٨٥٦ يشتريه . لقد مضى أربعون عاماً قبل أن

يتحقّق هذا الحلم . أربعون عاماً في الجهاد والكفاح ، والكد والعمل ، يصبح الحلمُ بعدها حقيقةً .. والخيال واقعاً .

وها هو تشارلز ديكنز ابن الأربعة والأربعين عاماً الآن يقف في أعلى المنزل ليَنظرَ إلى تحت فيرى تشارلز ديكنز ابن الأربعة أعوام . يا لله ! كم هو سريعٌ هذا الزمن ! وما أسرع عجلات الحياة بالخطى والسَّير ! أربعون عاماً مضتْ كأنها البارحة .. كأنها اليوم بين صُبحٍ ومساء !



وفـاته :

ومع كلّ ما مَلَكَ ، ومـع كلّ ما وَصَلَ إليـه وأصابَه من المال، لم يسترِحْ ديكنز، ولم يرحم صحّته العليلة وجسمَه السّقيم. فقد واصل العمـــل دون هوادةٍ أو توقّـف . فطاف بالجزر البريطانية مقدّماً المحاضرات والقراءات عن أعماله . وهذا نوعٌ جديد من العمل المُرهق ، كان له أشدّ التأثير على صحّته ونشاطه وعجّل في نهايته .

وفي شباط من عـام ١٨٦٦ زار ديكنز الولايات المتحدة الأمريكية مرّةً ثانية ، ووجد هناك شعباً كريماً يستقبلُه بحرارةٍ وتعظيم ، وقد نسيَ تماماً كلّ ما أساءَ إليه ديكنز في كتاباته عنـد الزيارة الأولى . وهناك أيضاً قـدّم المحاضرات والمطالعات عن مؤلّفاته وكتبـه ، وزار العديدَ من المدن الكبيرة وكـسب أصدقاءَ كثر .

وعندما عاد إلى بريطانيا تابع قراءاته فيها . ثم توقّف ، ليبدأ كتابةَ آخرِ رواياته : « ذي مِيستَري أف إدْوِنُ دْرُودْ » ، ولكنه لم ينجزْها . فقد كان القدر له بالمرصاد ! لم يرحم صحّته وأفكاره ، فلم يرحمه الموت . فقد مات فجأةً في اليوم التاسع من حزيران عام ١٨٧٠ وهو في التاسعة والخمسين من العمر . وشُيّع بموكبٍ مهيبٍ يحيطُ بنعشه كلُّ أبناء بلدته الذين أحبّوه حبَّ الصدق والوفاء . ودُفن في دير « وِسْت منستر أَبي » إلى جانب العديد من عظماء انكلترا .

وهكذا طُوِيَتْ صفحةٌ عظيمةٌ من صفحات بريطانيا . وسقط علمٌ من أعلام الأدب والفكر البريطاني وهو في ذُروة العطاء .

فإنْ كان تشارلز ديكنز قد مات وفَنِيَ جسدُه ، فإنّ روحَه وأفكارَه ما تزال حيّةً ماثلةً في الكتب والروايات والمؤلّفات التي خلّفها من بعده ..

كما كان له الفضلُ الكبير - وهو أثرٌ حيٌّ باقٍ بعد فناء

جسد ـ في تقويم الكثير من العادات والتقاليد الاجتماعية والانسانية في بريطانيا . فإلى جانب حقيقة قراءة كتبه ومؤلفاته اليوم وتداولها بين أوساط المثقّفين والمفكّرين ، فهي في عصره قد فعلت فعلَها في إصلاح المفاسد والاعوجاج الخلقي والاجتماعي .

لقد علّم بها كيف يُعامَل الفقراء والمساكين .. الأيتام والمجانين .. وكيف تجوزُ الرحمة بالساقطين من صغار اللصوص الذين لم يقترفوا إثماً كبيراً ! ووضع نصوصاً ومبادىء إنسانيةً لِما ينبغي أن يكونَ عليه حسنُ الجوار في معاملةِ ومساعدة المنكوديّ الحظّ والمتخلّفين عن العالم المجاوِر الذي يُطلق عليه اليوم : العالم البربريّ أو المتوحِّش !

ديكنز كتب كثيراً وكثيراً ليجعلَ الناس يُدركون كم هم بخلاء وغيرُ محسنين .

وفي « نيكولاس نِكِلْباي » يُبيِّنُ ديكنز كم كانت المدارسُ رديئةً ورثّة .

وفي « بارْنابي رَدْجْ » يعرض هـــذا الكاتب والمصلح الاجتماعي الطريقة المفزعة والرهيبة التي كان يُترَكَ بها أصحابُ الاختلالات العقلية لمواجهة مصائرهم ! ويجعلُ الناس يدركون في « أوليفر تْوِنْست » كم هو زمنٌ سيّء كان يعيشه الأيتام .

فأنت حين تقرأ كتبَ تشارلز ديكنز ، فإنك ستستمتعُ بكلّ قصّة منها .. ولكنك تخلُصُ في النهاية بأنّ الحياة للانسان المنكود الحظ والتعيس يُمكنُ أن تكون مُفزِعةً ومخيفة .

والناس اليوم في كلّ أرجاءالعالم المسيحي يذكرون تشارلز ديكنز في عيد الميلاد . فتشارلز ديكنز ، أكثر من أيّ كاتب آخر له الفضلُ في خلقِ أجواءِ الاحتفالات في عيد الميلاد . وقبل عصره لم يكن يحتفل الناس بعيد الميلاد مثلما يحتفلون به اليوم . ويَدينُ العالم اليوم بالامتنان والشكر للكاتب الذي ساعد على جعلِ عيدِ الميلاد مهرجانَ فرحٍ يتبادلُ الناس فيه الهدايا ، وينشدون نشيد المحبة والسلام على الأرض .

وفيما يلي قارئي العزيز أقدّم لك مااخترت من روائع الأدب عند تشارلز ديكنز : « دايفيد كوبرفيلد » ...

دايفيد كوبرفيلد
قصة من تأليف تشارلز ديكنز

نشأته :

وُلد « دايفيد كوبرفيلد » في بلدة « بَلَنْدَرْستون » في بريطانيا يتيماً. فقد مات أبوه قبل ولادتِه بستّةِ شهور . ولم يبقَ له من جناحَيْ الحياة سوى جناحِ أُمّه ، يحتضنُه ، ويحميه من غائلات الزمن وعوادي الأيام ..

كانت أُمُّه « كلارا » في فجرِ الصِّبا وعمرِ الورود حين ارتحلَ والدُه عن الدنيا . وكان هذا الوالدُ يكبرُ زوجتَه بأعوامٍ كثيرة ، وعلى جانبٍ كبيرٍ من الوَهن والضعف عندما اقترنَ بوالدته « الطفلة » .

لم تكن عمّتُه الشاذّة الآنسة « بَتْسي تْرُوتْوُودْ » راضيةً عن هذا الزواج لفارقِ السِّن بين الزوجيْن . وكانت تُخيفُ والدَته بسوءِ تصرُّفاتِها وسلوكها وأوامرِها الناهية . وآخرُ زيارةٍ لها للبيت ، كانت عندما وُلد دايفيد، وعلِمت بأنّ المولودَ كان ذكراً

ولم يكن أنثى كما رغبتْ وشاءتْ ، وصرّحت بهذا لوالدته !

كانت أولُ صورةٍ رآها حين تفتّحت عيناهُ وأبصرَ نورَ الحياة ، هي صورةُ والدته وصورةُ الخادمة « بيغوتّي » . لقد عشق هاتَيْن الصورتَيْن واعتاد عليهما . لم يكن هذا المنزل يضمُّ سواهما بالاضافة إلى عدد من الفراخ وديك ضخم كان يُخيفه .

كانت أُمُّه تحنو عليه كثيراً محاولةً أن تعوِّضَ عليه حنان الوالد الراحل . فهي لم تألُ جهداً في توفير كلّ أسباب السعادة والسرور وإدخالها إلى قلبه . وكان يقضي معظم أوقاته مع الخادمة بيغوتي التي كانت هي بدورها تفعلُ كلَّ المستطاع من أجل إرضائه والترويح عنه ..

زواج والدته :

وجرت الحياةُ على هذا النحو من العطف والدلال لدايفي الصغير .. قِصصٌ وحكاياتٌ وألعابٌ ولعبٌ في حديقة المنزل .

وفي ذات يوم ، دخلت والدته الحديقة وفي صُحبتها رجلٌ أسوَدُ الشَّعر جميلُ العارضَين ، تذكّرَ دايفيد أنه قد رآه في الكنيسة قبل هذا اليوم .

لم يرتحِ الصبيُّ الصغير لرؤية هذا الرجل ، رغم أنه حاول ملاطفتَه ومداعبته عن طريق ملامسةِ الخدّ ومصافحة اليد .. لقد شعرَ بحسِّه المُرهف وعقله الذكي أنّ هذا الرجل يُخفي وراءه أمراً جَللاً .

وتكرّرت الزيارات والاصطحاب معه ومع والدته من الكنيسة إلى الدار . وعلِم أنه يُدعى « إدوار مُرْدِسْتون » .

واكفهرّ الجوُّ في المنزل ، وحامتْ فوق رأسَيْ دايفيد والخادمة غيمةٌ من الحزن والكآبة والعبوس ، وهي تُنذر بشرٍّ مُستطير سيحُلُّ على هذا المنزل . ولاحظ دايفيد أنّ خادمتهم لم تَعُد تُجالسُهم كثيراً في المساء ، وأنّ أُمّه بدأت تميلُ إلى مراعاتِها واحترامها أكثر من ذي قبل .

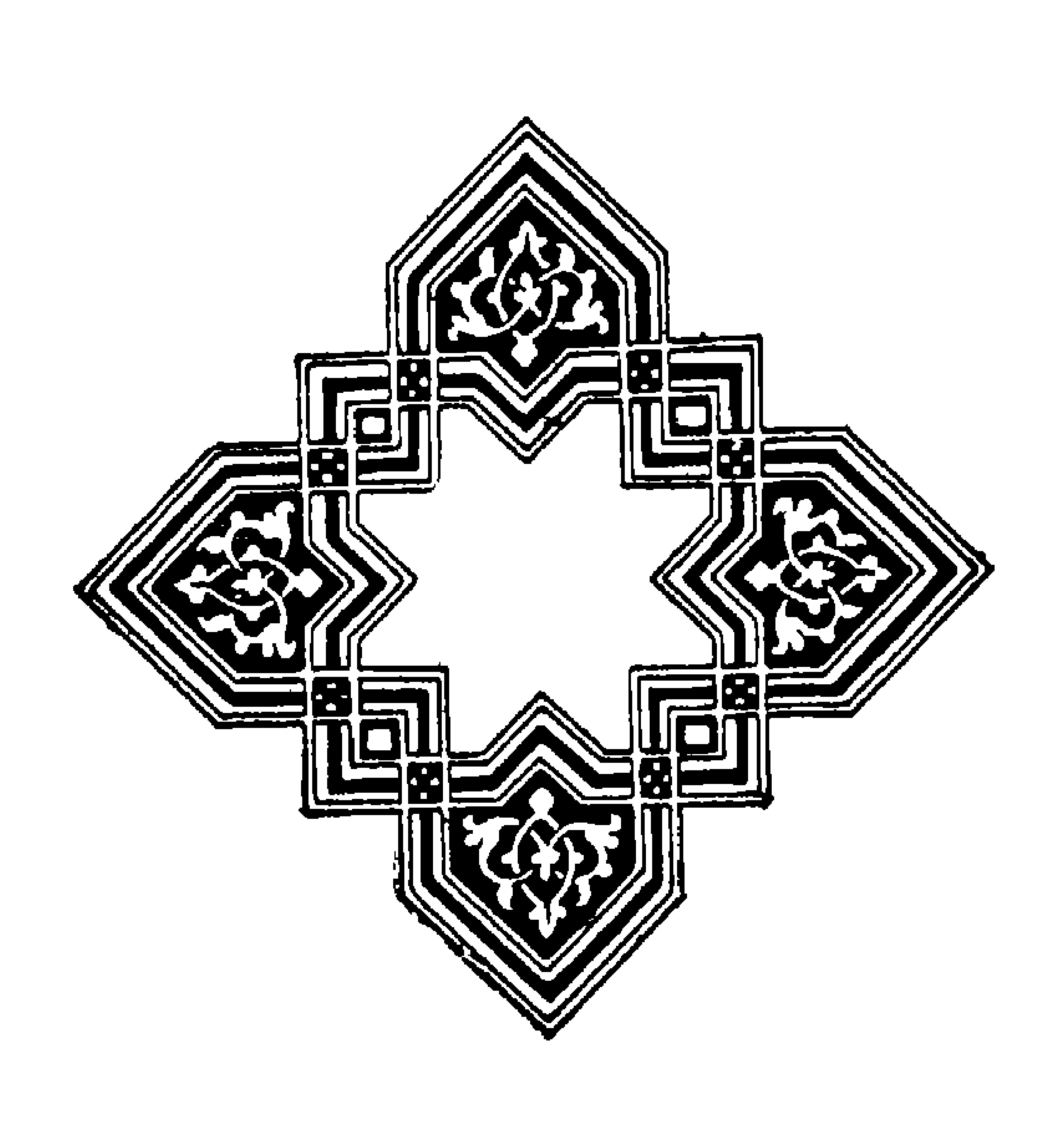
لقد بدا أنّ هذا الرجل يريد شيئاً ما . فقد أصبح يتردّد على المنزل باستمرار ، وكان دايفيد يقابلُه بفتورٍ ونفور .. وكان هذا ناشئاً عن كون دايفيد والخادمة بيغوتي غير محتاجيْن إلى شخصٍ غريبٍ يدخل حياتهما ويُحبُّ صاحبة الدار .

ويسافرُ دايفيد مع بيغوتي لقضاء أُسبوعين عند شقيقها في « بارموت » حيث البحر والسفن والصيادون .

ويَقضي هناك وقتاً مُمتعاً ولذيذاً مع « سام » ، ابن اخيها ، الذي غرق في البحر ، والفتاةِ الصغيرة « إميلي » ابنةِ شقيقتها ، التي مات والدُها أيضاً غرقاً في البحر ..

ويمرُّ الأسبوعان دون أن يُفكّر دايفيـــد بأحد ، حتى بوالدته ، لكثرة بهجتـه وسروره على شاطىءِ البحر ، ومع سام وإميلي .

وحين أزِفَتْ ساعةُ العودة يتذكّر دايفيد والدته ، ويشعر نحوها بشوقٍ عظيم وحاجةٍ إلى الالتجاء لصدرها الحنون .



بدايـة المتـاعب :

وفي طريق عودته كان دايفيد يتحدّث إلى بيغوتي عن شعوره بالفرح بلقاءِ أمّه . وكانت هي تحاول أن تُخفّف من هذا الحماس كأنها على عِلمٍ بأمرٍ ما .

ويصلُ دايفيد وخادمتُه إلى البيت . وتفتحُ لهما خادمةٌ جديدةٌ بابَ المنزل . وتغيبُ والدتُه عن استقباله . ويدبُّ في نفسه الخوفُ والهلع . لا بدّ وأنّ شيئاً ما قد حصل .. فأين أمّه ، ولماذا لم تكن في انتظاره ؟

ويَحارُ الجواب على شفتَيْ بيغوتي. وتُخبرُه بالحقيقة الجارحة بأنّ أمّه قد تزوّجت من السيد إدوار مردستون . ويُفاجأ .. وتَعقِدُ الدهشةُ لسانَه.. ويُحسُّ كأنّ الأرض تميدُ من تحته .. وتُلاحظُ بيغوتي اصفرارَ وجهه ، وارتجاف جسده كأنه العصفور الذبيح ! وتحاولُ أن تُخفّفَ عنه وقعَ الصاعقة بأنه قد

أصبح له والدٌ جديدٌ ، وتدعوه إلى رؤيته ، ويرفض .. ولكنه لم يقاوم دعوتَها إلى رؤية أُمِّه، فهو بشوقٍ عظيمٍ إلى رؤية وجهها.

ويتوجّهان إلى قاعة الاستقبال حيث جلست والدتُه بقرب المدفأة. وتهمُّ الوالدة بالنهوض وتفتحُ ذراعَيها لاستقبال ولدِها العائد .. ولكنّ صوتَ مردستون يردَّعُها عن هذا العمل ويذكّرُها بالاتّفاق الذي تمّ بينهما . ويسأله مردستون عن حاله ويمدّ له دايفيد يده مصافحاً ، ثم يتوجّه إلى والدته فيقبّلها بعد تردُّد ، وتقبّله وتضعُ يدَها على كتفه ، ثم تعود إلى الحياكة من جديد .

ويصعدُ دايفيد إلى غرفته ، فيجدُها قد تغيّرت ، ولم تَعُدْ له .

ويبلغ الألم ذروتَه في نفس دايفيد . فأُمُّه لم تعدْ له وحده، وكذلك الغرفةُ تصبح ملكاً لغيره . وتنهمرُ الدموعُ على خدَّيه في الحجرة الجديدة التي نُقل إليها ، ويبكي بكاءً مرّاً شديداً تهتزُّ

له جدران الغرفة . ولو كان لِجُدران الحجرة لسانٌ ، كما هو يقول ، لأَشهدَها على ما أسالَ من دموع !

وفي الصباح تصعدُ والدتُه إلى غرفته ، وهو لا زال راقداً في السرير ، وتجسّ رأسه، فإذا به يلتهب . وتسأله ما به ؟ ويشيح بوجهه عنها حتى لا ترى الدموع ، ويُجيب بأنْ لا شيء به على الاطلاق ..

وفجأةً يحسُّ دايفيد بيدٍ تختلفُ عن يد أُمّه ، تحاولُ أن تنزّعه من السرير . وكانت تلك اليد هي يد السيد مردستون . وحاولت والدتُه أن تُبدي خوفَها وعواطفها نحو ابنِها الذي لا بدّ وأنه يشكو ألماً ، فينتهرُها الزوج ويأْمرها بالانصراف ، ويَعِدُها بأنه سيلحقُ بها مع دايفي .

ويقفلُ مردستون البابَ ، ويجلسُ قبالته ، وتبدأُ جلسةُ الرّعب والتهديد . وينظرُ إليه نظرةً قاسيةً كأنها السّهم الذي يخترقُ القلب .. ويقول :

ـــ دايفيد ! أتعرفُ ماذا أفعل عندما أريد أن أطوّعَ حصاناً أو كلباً عنيداً ؟

فأجابه دايفيد بأنه لا يعرف !

قال مردستون: أضرِبُه إلى أن أُخضِعه، حتى لو اضطُرِرتُ إلى إسالة الدّمِ الذي في عروقه !

وختم مردستون حديثَه أو تهديده بالقول :

ــ بالنسبة إلى ولد في سنّكَ أرى أنّ لديك كثيراً من الذكاء .. أظنُّك فهمتَ ما أريد ! قُم اغسِل وجهَك وانزِل معي !

وطبعاً بعد ذلك التهديد بالثبور وعظائم الأمور ، كان لا بدّ لدايفيد أن يستجيب ويخضع .

ولما هبطا إلى غرفة الاستقبال ، قال مردستون مخاطباً زوجته : كلارا ، أيتها العزيزة ، أرجو ألا يعذّبك بعد الآن ! سنعرف كيف نقوّم هذا الطبع العنيد الصغير !

لقد مسّت هذه الكلمات المفعَمة بالتهديد والوعيد قلبَ دايفيد الصغير ، وملأته حقداً واحتقاراً . ولو أنّ مردستون خاطبه بغَير هذا الذي فعل ، لكان الموقف تغيّر ، وحملَ له الحبّ والاحترام !

وشعر دايفيد بأنّ والدَته كانت حزينةً وفي غاية التعاسة من أجله ! ولكنها آثرت الصمت ، وتكلّمت بنظراتها التي كانت تلاحق دايفيد أينما اتّجه !

وفي المساء وصلت شقيقةُ السيد مردستون إلى المنزل ، لتقيمَ فيه بصورةٍ نهائية . لقد كان الشّبَهُ بينها وبين شقيقها مُذهلاً وغريباً . فهي صورةٌ طبق الأصل عن أخيها ، بسواد شعرها ، وتجهُّم وجهها ، ومظهرها المخيف ! ومع قدومها بدأت دائرة النفوذ والترهيب تتّسع وتتّسع .

وحين بدأ دايفيد بتلقي دروسه في البيت تمهيداً لإرساله إلى إحدى المدارس ، كانت والدته تُشرِف على دراسته من الناحية الشكلية فقط . أما الإشراف الفعلي فقد كان للسيد

مردستون وشقيقته اللذان كانا يستغلّان هذه الفرصة ويسومانه شتى ضروب القساوة والعذاب لتلقين أمّه دروساً في الحزم والشدّة . وقد استولى على دايفيد شعورٌ بأنّ هذا التصرف من قِبَل السيد والآنسة مردستون كان وراء استبقائه للدراسة في المنزل .

وتبدأ سلسلةُ التعذيب والترويع والتنكيل بدايفيد عن طريق الدرس .

فحين كانت والدته تستمعُ إليه وهو يقرأ الدرس ، كان السيد مردستون يتظاهرُ بأنه يقرأ صحيفة ، فيما هو يتابعُ بسمعه ما يقول دايفيد .. وكم من مرّة تلعثم دايفيد وقفز عن بعض السطور وهو يُراقبُ هذا الرجل ونظراته الحادّة إليه !

ولم يكن أحسن حالاً مع المس مردستون التي كانت تنوب في بعض الأحيان عن شقيقها في مراقبته وتوبيخه إذا هو أخطأ في شيء ! وكثيراً ما كان يشترك الشقيقان في توجيه اللّوم إلى والدته ، والعبارات القاسية إليه !

لقد كان الدرس في الماضي وقبل دخول هذين الغريبين إلى المنزل لذيذاً وشيّقاً ، ولم يكن يجدُ فيه أيّةَ صعوبةٍ مثلما يراها اليوم .. والدرسُ عنده اليوم أصبح بمثابة عملٍ شاق ومرعب .

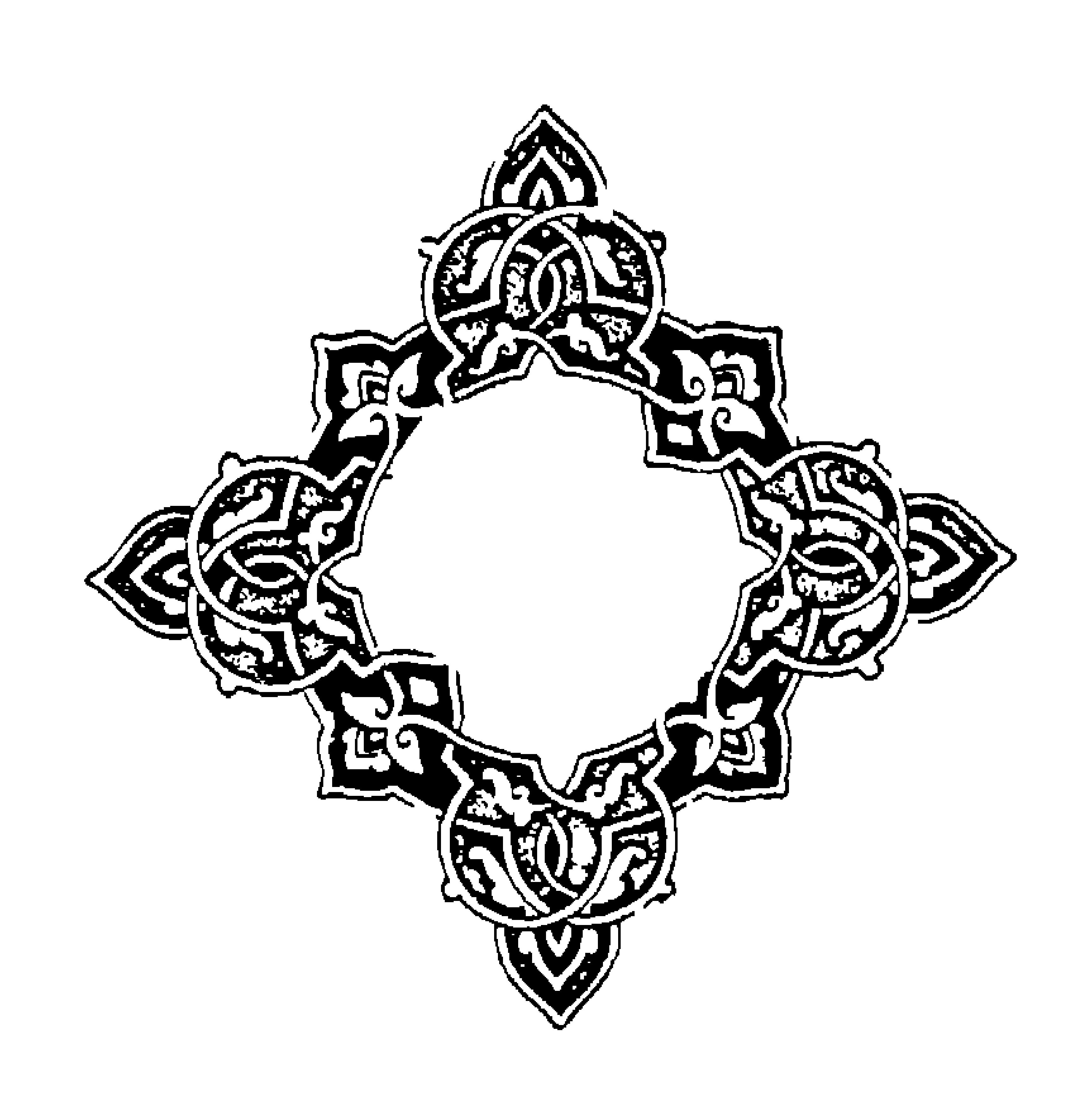
وفي إحدى المرّات طلب منه السيد مردستون وهو يلوّح بعصا في يده أن يكون أكثر انتباهاً للدرس . وطبيعيٌّ في مثل هذا الموقف أن يطيرَ كلُّ شيء من رأس دايفيد .

وحين تدخّلت والدته وأجهشتْ بالبكاء لمنظر ولدها وهو يرتعدُ خوفاً وهلعاً ، انتهرتْها الآنسة مردستون ، وهكذا فعل شقيقها الذي قال بأنه لا ينتظرُ حزماً من كلارا زوجته. وأمسك بيد دايفيد وأصعده معه إلى الغرفة وأقفل الباب ، وانهال على دايفيد بالضرب ، وهو يتخبّط ويستجير . وعندما أدرك أنّ مردستون لن يكفّ عن ضربه ورأسه بين ذراعيه ، أطبق بأسنانه على اليد التي تحبس رأسه وعضّها بكلّ ما يملك من قوّة .

وهنا ثارتْ ثائرةُ مردستون وهاج وماج وراح يضربه ضرباً مبرّحاً دون وعي كأنه يريد القضاء عليه . وعبثاً حاولتْ

أُمه وبيغوتي ، وقد سمعهما تبكيان من وراء الباب الموصد ، أن تُثنياهُ عن ضربه عن طريق الاستجداء وطلب الرحمة، والطَّرْقِ على الباب .. ولكنه لم يفعل إلا بعد أن ألقــــاهُ على الأرض مُغمىً عليه ..

ولم يكتفِ السيدمردستون بهذاالضرب الموجع المتوحّش بل أعقبه بحجز دايفيد خمسة أيام داخل حجرته ، لم يسمح خلالها هو وشقيقتُه لأُمِّه أن تقتربَ منه .



المدرسة الداخلية :

وأخيراً استقرّ رأيُ الشقيقَين مردستون على إبعاد دايفيد عن البيت وإلحاقه بمدرسةٍ داخلية في لندن . وبالفعل فقد جاءتْهُ الآنسة مردستون في اليوم السادس بعد انتهاء عقوبة الحبس في الحجرة ، وأخبرته أن يتهيّأ للسفر إلى المدرسة الداخلية .

وسافر دايفيد يحملُ معه كميّةً من الحلوى وثلاثة شلنات لمّاعة من بيغوتي وجنيهاً من والدته وضعتْ نصفَيْه في ورقة كتبتْ عليها « إلى دايفي مع كل حناني » .

لم يذكر دايفيد أنه بكى مرةً في حياته مثلما بكى هذه المرّة، فقد أفرغَ عيونَه من الدموع وهو يغادر والدته والخادمة بيغوتي والبيتَ الذي أحبّ قبل أن يأتيَ إليه الشقيقان الظالمان !

ويصل دايفيد إلى المدرسة التي كانت تقع في مكان مُقفر موحش . ويستقبله رجلٌ بدينٌ عبوسُ الوجه حليقُ الرأس له

ساقٌ خشبيّةٌ وجبينٌ بارز ورقبةٌ غليظةٌ كرقبة الثَّـور ، ويقدّمه إليـه السيد « ملّ » الذي أحضره من المحطة إلى المدرسـة ، وهو أحدُ المشرفين على المطالعة في مدرسة « سالم هاوس » الداخلية .

لم يجدْ دايفيد أحداً من التلاميذ في المدرسة . فقد كانوا في عطلتهم الصيفية الكبرى . ويعرفُ أنّ السببَ في مجيئه في هذا الوقت بالذات إنما هو عقـابٌ آخر من عقوبات السيد مردستون القاسية .

وفي حجرة المطالعة التي قاده إليها السيد مـل وتركه فيهـا ، يرى دايفيد على أحد الأدراج الـتي تقود إليها لافتةً من الورق المقوّى كُتِبَ عليها بالحروف البارزة : « حذارِ ! إنه يَعَضّ ! » وتراجعَ دايفيد مذعوراً إلى الوراء خشيةَ أن يـأتيَ إليه الكلب فيعضّه.. ويأتي إليه السيد ملّ ويخبره بأن هذه اللافتة إنما أُعِدَّت لتعلَّق على ظهره ، وهو قانون تقضي به علاقات المدرسة مـــع الطلاب الجدد .

وتُعلَّقُ اللافتةُ على ظهره ويشعرُ بالكآبة والضيـــق لهذا

العمل . ورغم أنه لم يكن أحدٌ يرى هذه اللافتة على ظهره، فقد كان يخيَّل لدايفيد أنّ شخصاً ما يقرأها .

وحين فتحتْ المدرسةُ أبوابها ، وعاد التلاميذ ، كَبُرَ همُّ دايفيد وازداد الحزنُ في نفسه . فهو سيصبح أضحوكة رفاقه الطلاب وموضعَ هزئهم وسخريتهم . ولكنّ الطلاب لم يفعلوا بل أظهر بعضُهم الاستياء والاستنكارَ لهذا العمل المشين ، ولا سيّما « ستير فورث » الذي كان يكبرُه بستة أعوام ، ويحظى باحترام جميع الطلاب لذكائه وثقافته العالية ..

وجاءه صاحبُ السّاق الخشبية وأخبره أن السيد « كريكل » مدير المدرسة ، الذي عاد بعد انتهاء العطلة ، يريد أن يراه . لقد كان منظرُ هذا المدير يبعثُ على الخوف والرّهبة . وحين أصبح بين يديه ، بادره السيد كريكل بالقول بعد أن أمسك أُذُنَه وراح يشدُّها :

— إنّ لي شرفَ معرفةِ عمّك .. إنه رجلٌ كريم.. رجلٌ هُمام .. هو يَعرِفني وأنا أعرفُه ، فهل تعرفني أنت ؟

وحين أجابه دايفيد بأنه لم يعرفه بعد قال مرّةً أخرى :

ــ لم تعرفني بعد ؟ هه ؟.. كلّ آتٍ قريب ..

وأمره بالانصراف .

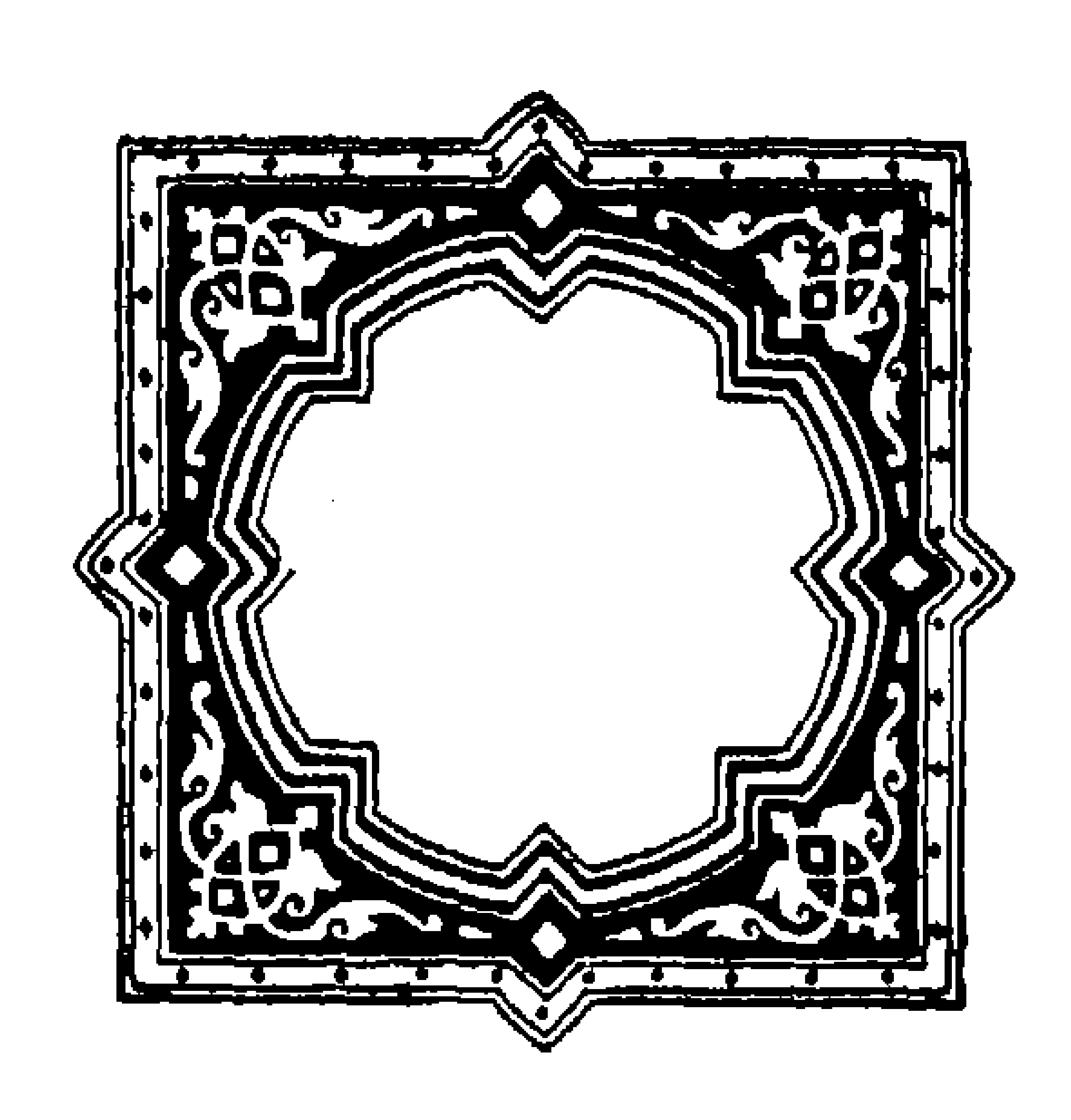
لقد كان السيد كريكل قاسياً بضربه الطلاب . ولعلّ قساوَته هذه قد أفادت دايفيد . فهو حين أراد ضربه على ظهره ، شعر بأنّ تلك اللافتة تعوقه فأمر برفعها .

وفي جوٍّ كهذا تسودُه المعاملةُ القاسية الوحشيّة ، فشل أكثرُ التلاميذ في دراساتهم . أمّا دايفيد فقد استطاع ، رغم العُقوبات المستمرّة ، أن يحصلَ على بعض الثقافة والعلم ، وذلك بفضل اعتداده بنفسه ومساعدة رفيقه ستير فورث الذي وضعه تحت حمايته . كما كان لمساعدة مِلّ دور بارز في تقدّمه ونجاحه .

وانتهى العام الدراسي . وعاد دايفيد إلى المنزل . وهناك وجدَ أُمّه في حالةٍ يُرثى لها من الضعف والهُزال ، وعلى يديْها طفلٌ صغير عرفَ أنه أخوه .

وعــــاد السيد والآنسة مردستون إلى مضايقته وإظهار الكراهية له . ورغبَ في انتهـــاء العطلة المدرسية والعودة إلى المدرسـة رغم كراهيته لها ، لأنـه لم يجد في منزله الحبَّ إلا من والدته وبيغوتي ، ولكن بتحفظ .

وانقضت مدّةُ الشهر ، وعاد إلى المدرسة يحمل في ذهنـــه الصّورَ البشعة عـن الشقيقَين مردستون .. وكيف كانا يمنعانه من مُلامسة أو مداعبة أخيه الطفل .



وفـاة والـدته :

ولم يمضِ شهران على عودته إلى المدرسة حتى استُدعيَ إلى حجرة المقابلة . وهناك أخبرته السيدة كريكل زوجةُ المدير وهي تحملُ بيدها خطاباً مفتوحاً ، أنّ والدته مريضةٌ جداً . وقدّمت له هذا الخبرَ بالاشارة إلى كيف أنّ العالم يتغيّر في كلّ يوم ، وكيف يختفي الناس الذين يسكنونه . ومن هذه المقدّمة عرفَ أنّ والدته قد ماتتْ . فجمدتْ دماؤه في عروقه ، وأحسّ بأنّ غمامةً تنتصبُ بينه وبين السيدة كريكل ، فلم يعدْ يراها ! لقد فقد كلّ شيء .. كلّ شيء في هذه الحياة .. هوى الجناحُ الآخر والأخير ، وأصبح وحيداً في هذا العالم !

وفي اليوم التالي غادر المدرسة وعاد إلى المنزل ليودّعَ أمّه الوداعَ الأخير قبل أن يُودِعوها الأرض . وانفجرت بيغوتي عند رؤيته باكيةً تفجّرُ كلّ ما في قلبها من لوعات وقهر .

وسار وراء النعش يودّعُ الأملَ الراحلَ والحبَّ المقيم .. وأودعَت الثّرى .. وفيه أودع قلبَه وروحه ! وداعاً أيها الأم .. أيها الدنيا .. وهل كانت الدنيا إلا أمّاً وأباً ؟ وقـــد فقد الأمّ والأبَ ، وأصبح يتيمَ الأبوين .

وماتَ أخوهُ الطفل الصغير بعد وفاة والدته بيوم واحد ، كأنه كان لا يَقـــوى على فراقها فآثرَ الرحيل معها ، ودُفن إلى جانبها .

وبعد أيام قليلة ولَما يجفّ قبرُ والدِته بعد ، طلبت الآنسة مردستون من بيغوتي أن تغادرَ المنزل خلال شهر واحد .

وعلمَ هو أيضاً أنه لا توجد لديها ولا لدى شقيقها رغبةٌ في عودته إلى المدرسة. لقد تغيّر الحال الآن ، ولم تعد أُمّه موجودة!

وبجرأة غير متوقّعة تخبر بيغوتي الآنســـة مردستون أنها ترغب بأخذ دايفيد معها إلى يارموث .

ويسافر دايفيد مع بيغوتي إلى يارموث في عربـــة السيد

باركيس . وهناك يلتقي باليتيمة إميلي مرّةً أخرى ويقضي معها ومع سـام ابن شقيقها اليتيم أيضاً لحظات سعيدة تُنسيه بعضَ همومه وأشجانه . وتتزوّج الخادمة بيغوتي من السيد باركيس صاحبِ العربة الذي كان يحمله في السفر دائماً ..

ويرجع دايفيد إلى المنزل الذي لم يعد له فيه شخصٌ يحبُّه . ويتضايق السيد مردستون من وجوده .. ويعلنُ له عن رغبته في إرساله إلى لندن للعمل في المحلّ التجاري الذي يملكه هو وغرينباي ، والذي يختصّ بتجـارة الخمور ، وذلك لقاء أكله ومصروف جيبه .

ويسافر إلى لندن ويعمل في محل السيدمردستون وشريكه. وكان عمله ينحصر في غسل زجاجات الخمر الفـارغة ، ولصْق العلامات التجارية على الزجاجات المعبّـأة ، وختمها ، وقطع السدادات .. ويسكن عند أحد سماسرة البيوت التجارية السيد ميكوبر وزوجته وأولادهما الأربعة . ويعتاد على هذه الأسرة، ويقضي كلّ أوقات فراغه معها . ويأتي يومٌ تضيق فيه أحوال

الأسرة وتسوء ، وتتراكم الديون ، ويُسجن السيد ميكوبر ، ويُباع أثاثُ منزله بالمزاد . وينتقلُ دايفيد إلى غرفة قريبة من المنزل الذي كان يعيش فيه مع الأسرة التي شرّدها سجنُ عائلها الوحيد .

ويشعر دايفيد بأنه غيرُ سعيد في هذا العمل رغم نجاحه فيه . فهو لم يُخلق لهذا النوع من العمل ، ومقابل هذا الأجر الزهيد الذي لا يكاد يكفيه للطعام وأجرة المسكن .. ويصمّم على الهرب .. ويرسلُ رسالةً إلى بيغوتي يطلبُ فيه عنوان عمة والده ، ونصف جنيه .. وما يلبث أن يأتيه الردّ وفيه نصف الجنيه .

وتخبره بيغوتي في الرسالة أنّ الآنسة بتسي تقطن بالقرب من دوفر ، ولكنها لا تعرف إنْ كانت تقيم في دوفر نفسها أم في سانغيت أم في هايث أم في فولكستون . غير أنها تُضيف أنّ تاجراً أخبرها أن هذه المدن متّصلةٌ ببعضها .

ويقرّر الرحيل ، ويبدأ بخطوة السفر الأولى في الذهاب

إلى محطة العربات . وهناك ينتزعُ منه رجلٌ ضخمٌ ، يجرُّ عربةً صغيرةً على حمار ، الحقيبةَ ونصف الجنيه ، ويولّي هارباً .

ولكنه لم ييأس ، ويتابعُ السفر مشياً على الأقدام . وكان الفصلُ فصل صيف ، والجوُّ حاراً . ويتعب ، ويجلس على قارعة الطريق. ثم يدخل دكّاناً ويبيع سترته بعشرين فلساً ؛ وهو لم يكن يحملُ معه سوى ثلاثة فلوس . ويستأنف المسير . ويتعب مرّةً أخرى ، فيلجأ إلى جانب كومة من العلف الجاف ليقضي الليل .

وبعد ستة أيام من السفر المضني المتواصل ، يصل دايفيد إلى دوفر وهو أشعثُ أغبر ، ممزّق الحذاء ، متّسخ الثياب ، وقد أخذ التعب منه كلَّ مأخذ .

الحيـاة الاخرى عنـد بـتسي :

وبعد بحثٍ شاق، اهتدى دايفيد إلى بيت عمة والده الآنسة بتسي ، حين التقى بخادمتها صدفةً في أحد المحلات التجارية .

ودخل دايفيـد البيت ، والتقى بالعمّة بتسي ، وعرّفهـا على نفسه . فرعَتْه واهتمّتّ بـه ، وقدّمت له الطعام والملبس وغرفة النوم . حقـاً لقد كانت بتسي امرأةً عطوفاً رقيقـةً رغم مظهرها وتصرُّفها الشاذ . فهي تُظهر غير ما تبطن ، لأنّ لها قلبـاً رحيماً ونفساً طيّبة .. وعاش دايفيد مع العمة بتسي أياماً حلوة جميـلة ، استردّ فيها قوّته وأنفاسه ..

وقصّت عليه بتسي كيف أنها كانت تريد أُنثى عندما حملتْ أُمّه به ، وكيف أنها غضبتْ لمجيئه لأنه خيّب أملها في مجيء بتسي الصغيرة .. ولكنها الآن وقد أحسّت بالحبّ والحنان نحوه قـد زالت هذه الفكرة من مخيّلتها ، ولذا فهي ستُطلق عليـــه اسمَ

تروتوود كوبرفيلد منذ الآن ، وستعتبرُه صديقاً لها، وستعوّض له الحنان الذي فقده بفقد والده ووالدته المسكينة الطفلة التي ظلمتها الأقدار بالزواج من رجل كبير السنّ ، وبالتالي من رجل آخر قاسٍ ولئيم ، ومن ثم بالرحيل المبكّر عن الحياة وهي لم ترَ من وجهها إلا الشرّ والعذاب !

وتبحث العمة بتسي في أمر مستقبل الطفل تروتوود مع السيد « ديك » الذي كان يسكن معها البيتَ بعد أن آوته وهو شبهُ معتوه . ويستقرُّ الرأيُ أخيراً على إرساله إلى مدرسة قريبة من دوفر .

ويذهب تروت ، كما أحبّت بتسي أن تناديه ، برفقة العمة إلى « كنتربري » حيث تريد تعليمه في مدرسة تفوق ما عداها من المدارس، ولكن لا يمكن أن يسجّل فيها في الوقت الحاضر إلا كخارجي ! وتُسكِنه مع عائلة مؤلفة من والد وابنته فقط.. وتتركه هناك وهي توصيه قائلةً :

— تروت ، إصنعْ ما يرفَعُ رأسَك ورأسي ورأسَ ديك

وليكنِ اللهُ معك !

ويبلغ به التأثر حتى الدمع . ويشكرها ويحمّلها تحياته إلى ديك . وهنا تقول :

ـــ ترفّعْ عن الدنايا .. لا تكذِبْ أبداً .. لا تكن قاسيَ القلب .. فإنْ ابتعدْتَ عن هذه المفاسد الثلاث ، يا تروت ، حقّقتُ فيك أملي !

ويعدُها تروت أن يفعلَ ، وأن يكونَ عند حسن ظنّها فيه . وبدأ حياته الجديدة في المدرسة ، وفي البيت مع السيد ويكفيلد وابنته الجميلة الرقيقة آغنيس . وسُرّ جداً في هذه الحياة التي رأى فيها وجهاً آخر غيرَ الوجه الذي مضى وانقضى وطوى معه صفحةَ المآسي والأحزان !

وها هو يدرس ويجدّ ويجتهد ، ويحصّل من العلم كثيرَه . لقد كانت هذه المدرسة مختلفةً كثيراً عن المدرسة التي أرسله إليها مردستون . هنا معنى لكرامة الإنسان .. وهناك .. لا .. هنا صرحٌ للعلم من أجل العلم .. وهناك .. لا .. وهنا توصيةُ عمته

بتسي .. وهناك توصيةُ عمه مردستون !

ويتذكّر بيغوتي ويرسل لهـــا رسالةً ، وتَعْقُبها رسالات وجوابات . وتخبره بيغوتي في إحدى رسائلها أنّ أثاثَ منزله قد بِيعَ وأصبح البيتُ مهجوراً. أما الشقيقان مردستون فقد رحلا. ويتأثّر لهذا النبأ . ولكنه يزيدُ من فاعلية جدّه ونشاطه .

وتنتهي مرحلةُ الدراسة الأولى ، ويغادر عالَمه الصغير في المدرسة ، ويعود إلى عمته يحمل نتائجَ مشرّفة في الدراسة، ويبدأ في مناقشة بتسي في موضوع اختيار المهنة التي تناسبه ، وينقضي عام ولم يستقرّ رأيه على شيء . وعنـد عودته من زيارة بيغـوتي بطلب من العمة بتسي ، تسأله إن كان يريدُ أن يصبح مدّعياً عاماً .. ويعجبه هذا الاقتراح ويؤيّده كثيراً ، فهو يريد أن يصبحَ رجلاً ذا شأن .

ــ ولكنّ الأمرَ يُكلِّف كثيراً .. ألفَ جنيه بالضّبط..

وتردُّ العمة بتسي :

ــ تروت ، إنّ هدفي في الحياة هو أنْ أجعلَ منك رجلاً

فاضلاً وحصيفاً ، وأن أملأ حياتك بالسعادة والبهجة .. هذا كلّ ما أتمناه .. و « ديك » من رأيي .

ثم تضيف :

ـ كنت على الدوام مصدر اعتزازي وراحتي ، فلا أحدَ غيركَ إذنْ له حقٌّ في ثروتي ، وأنت ولدي بالتبنّي . ولستُ أطلبُ منكَ سوى أن تكونَ لي ابناً مُحِبّاً وأن تتحمّل نزواتي وغرابةَ أطواري، وبذلك تكون قد منحْتَ هذه المرأة العجوز التي لم تحصل في شبابها على ماينبغي من الراحة والسعادة، أضعاف ما قدَّمَته هي لك .

وفي صباح اليوم التالي سافرا إلى لندن، وتوجّها إلى مكاتب السيدَين سبنلو وجوركنز . وتمّ الاتفاق على أن يبدأ دايفيد شهرَ التجربة . ورجعَت العمة بتسي إلى بيتها بعد أن اطمأنّت على وضع ولدها تروت ، وأصبح له في لندن بيتٌ مستقلّ ، يُقفِلُ عليه بابَه فيَطمئنّ ويستريح .

ويتعرّف هناك على ابنة السيد سبنلو الذي كان يُشرف على

تدريبه وتمرينه في المكتب . لقد التقى بها عنـــدما دعاه السيد سبنلو إلى منزله الريفي في « نوروود » لقضاء عطلة الأسبوع . إنها فتاةٌ رائعةُ الحسن والجمال ، مثقّفة ومهذّبة ، وخرّيجة إحدى المدارس الفرنسية . ويُطلق كيوبيد سهمَ الحبّ في قلب دايفيد ويعشق « دورا » من أوّل نظرة ..

ويُفاجأ دايفيد بوجود الآنسة مردستون في منزل السيد سبنلو . إنها تعمل كمربّية لابنته دورا .. ويدور حوارٌ عاتبٌ بينهما ، ينتهي برجاء الآنسة مردستون أن ينسى دايفيد الماضي ، ولا يقابلها الإساءة بالإساءة، سيّما وأنها قد عرفت منزلته ومكانته لدى السيد سبنلو وابنته دورا .

أنبـاء سـيئة :

وفي ذات يوم يتلقّى دايفيد رسـالةً من بيغوتي تخبره فيها بأنّ زوجها باركيس في حالة الخطر الشديد . ويسافر على التّـو إلى يارموث ، ولكنّ الزوج كان قد قضى نحبه . ويصطحب معه مربّيته الطيّبة إلى منزله في لندن لتصريف بعض أعمالها . ويُفاجأ بوجود عمته ومعها السيد ديك ، وكانت تجلس على كومة من الحقائب وأمامها قفصُ طيورها ، وقطّتها على رُكبتَيها. ويرحّب بها كثيراً ويعانقها . ويعلمُ منها أنها أفلستْ ، ولم يعد عنـــدها ما تملكه من حطام الدنيـا سوى منزلها الصغير الذي أجّرته لقـاء سبعين جنيهاً في السنة .

ويحزن كثيراً على ما أصاب عمته ، هذه الانسانة الطيّبـــة الكريمة، وهي تبلغه أنّ حزنَها لم يكن متأتّياً من فَقْدِ ما تملك، بل من أجله هو هي حزينة .. فهو لم يصـــل بعد إلى المستقبل

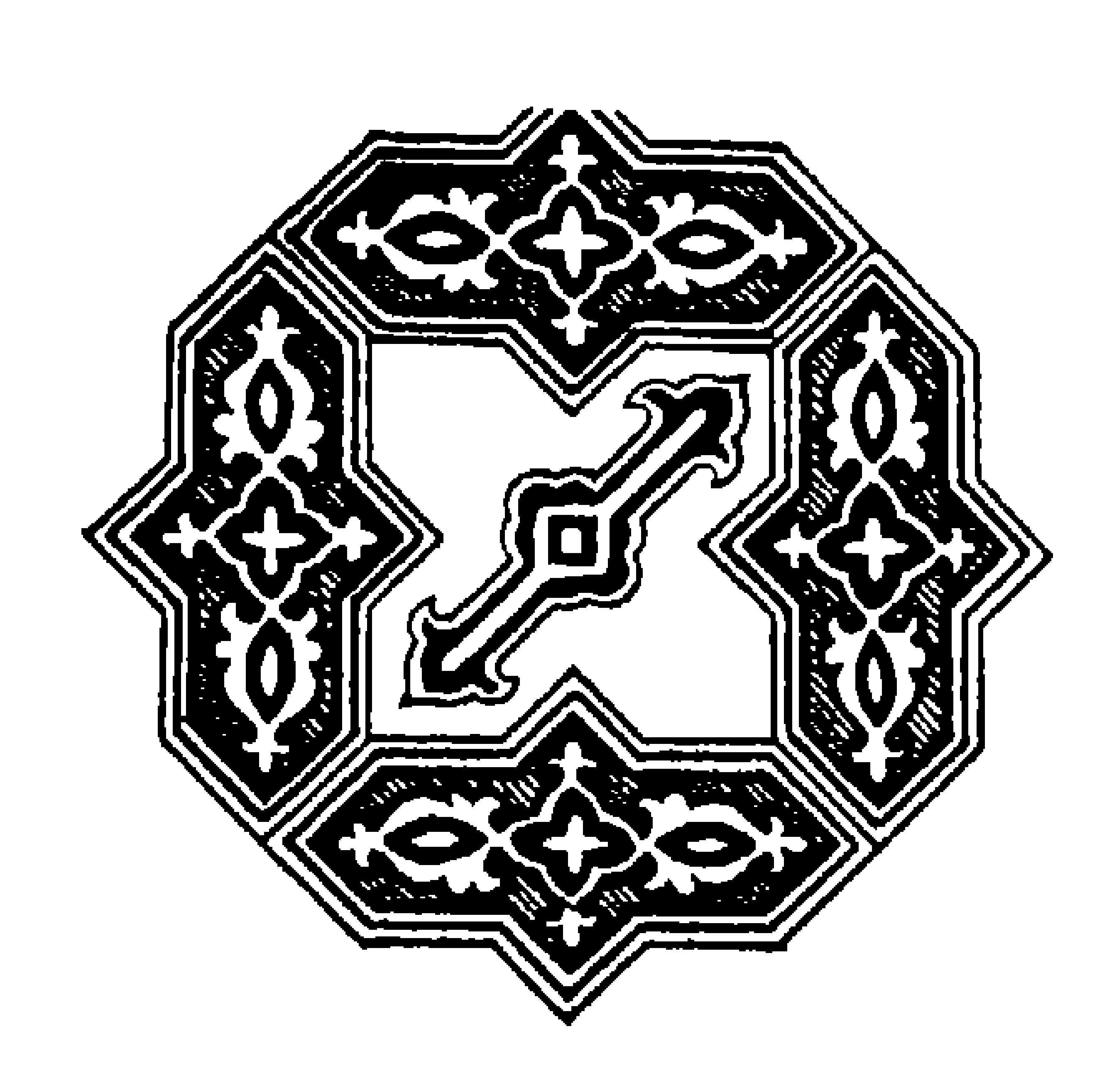
المشرق الذي رسمته له .

ويُدرك دايفيد معنى هذا القـول .. ويحاول أنْ يهدّأ من روعها .. فهو رجلٌ وعلى جانب من العلم والثقافة ، وسيعمل من أجلها .. من أجل أن يردّ لها بعضَ ما لها عليه من ديون العطف والحبّ الكبير ..

ويحاول أن يُقنع السيد سبنلو باسترداد ما يمكن من مبلغ الألف جنيه الذي دفعتْه عمته من أجل تمرينـه في المكتب . فهو يريد أن ينقطعَ عن التدرّب في هـــذا المكتب نتيجةَ ما طرأ واستجدّ على وضعه المـالي . ويرفض الشريك جوركنز هذا الطلب .. ويخرجُ مـن مركز الدراسـة ونفسُه مملوءة بالتشاؤم ؛ والسبب أنّ إفلاس عمته هو العقبة الوحيدة دون تحقيق حلمه بالزواج من دورا ، لأنّ والدَها سيعارض ذلك بكلّ تأكيد !

ويخبر عمته أنه قرّر العمـل .. فترفض هذا القرار ، وتخبره بأنها لا تريد رأساً مكسوراً في الأسرة ، وعليـه أن يواصلَ الدرس ليصبحَ وكيلَ نيابـة . وتوافـق أخيراً على أن يعمل في

وقت فراغـه .. ويلتحق بالعمل عند مديره السابـق في المدرسة التي تخرّج منهـــا ، الدكتور سترونغ ، ويعمل سكرتيراً له . ويتعلّم الاختزال ، ويعمل أيضـاً في ميدان الصحافة والتحرير ، وينجح في الكتابة والتأليف . وتدرُّ عليه هذه الوظائف أموالاً لا بأس بها ..



الزواج من دورا :

ويشعر دايفيد أنّ الحياة قد عادت فابتسمت له من جديد بعد عبوس . ويقرّر الزواج من دورا ، ويستأذن عمته في ذلك.

وحين عزم على التوجّه إلى منزل السيد سبنلو لطلب يد ابنته دورا للزواج ، يُفاجأ بموت هذا السيد الكريم الذي رعاه في المكتب وأحسنَ وفادته في البيت . ويقفُ دايفيد إلى جانب دورا في محنتها وأيامها العصيبة ، فهي أيضاً قد أصبحت مثله يتيمة الأبوين .

وتكرُّ الأيام والأسابيع والشهور .. ويصارح دايفيد حبيبة فؤاده بالزواج منها . وتوافق على الفور . ويتمّ الزواج . وينتقلان إلى بيتٍ جديد .. ويعيشان أياماً مليئةً بالمباهج والأفراح ، ويرشفان من كأس السعادة ما يعوّض عليهما بؤس الأيام ، وحرمان حنان الوالدين !

ويحرزُ دايفيد نجاحاً بارزاً في الحقل الأدبي ، وينصرف إلى الكتابة . ويمضي عام على الزواج الهانىء السعيد . وفي العام الثاني من الزواج يلاحظ دايفيد أنّ زهرته قد بدأتْ تذبـــل وتفقد حيويّتها شيئاً فشيئاً .

أكُتِبَ لهذه الزهرة أنْ تـذْوي على غصنها كما تذوي الأزهار ؟ لقد دبّ المرضُ الفتّاك في جسد هذه الطريّة العود ، وأصبحت على مرمى الموت والقبر .. وها هو سراجُ حياتها يخبو ويخفتُ ! إلى أن جاء يومٌ لفظتْ فيه أنفاسَها على ذراع آغنيس.

ويحطّم الحزنُ روحَه وفؤاده . ويشعر أنــــه قد بات هو الآخر قريباً من القبر ! ولا يجدُ وسيلةً تُريحه من العذاب والألم سوى السفر والتجوال . ولكـنه يؤجّل سفره من أجل العمل على استرداد ثروة عمته من مخالب «أوريا» الذي خدعها وأفلسها . ويتمكن بمساعدة وجهود ميكوبر أنْ يعيـــدَ لعمّته الأموال المسروقة عن طريق الغش والاحتيال .

وبعد ذلك غادر دايفيد لندن إلى إيطاليا، ثم إلى سويسرا،

وظلّ يطوف ثلاثة أشهر. ثم قرّر الاستقرار مؤقتاً في سويسرا، وهناك كتب قصّةً بلغت قمّة النجاح .. وعاد إلى لندن . وجاء عيد الميلاد ، وكان قد مضى على عودته أكثر من شهرين .. واحتفل مع عمته وآغنيس بهذه المناسبة السعيدة .

وفي كنتربري كان دايفيد يجد لذّةً في مديح الجمهور له ، ولكنّ كلمةَ ثناءٍ واحدة من آغنيس كانت تمنحه أضعاف ذلك من اللذّة . كان يذهبُ إليها على الفرس عند المساء ، ويقضي السهرة عندها ، ويقرأُ لها صفحات من كتابه ، فتُغرِقُ في الضحك أو تُرسِل الدموع. وكان يشعر من خلال هذا الموقف أنها تتمتّع بذوق أدبي ، وإحساس مرهَف . وكيف لا .. وهو يراها تندمجُ اندماجاً كليّاً مع العالم المثالي الذي يعيش فيه . وكان يتمنّى لو أنه تزوّج امرأةً تتجاوبُ مع أفكاره مثلَ هذا التجاوب !

وفي ذات مساء ، وبينما كان دايفيد يستعدُّ للخروج إلى كنتربري وسطَ جوٍّ عاصف من الثلوج المتساقطة ، تحاول عمته

بتسي منعه من الخروج في هذا الجو البارد ، ولكنه يأبى ذلك ويصرّ على النزهة مع حصانه !

ويسألها قبل أن يخرجَ عن أيّ جديد في موضوع آغنيس، حيث أخبرتْه العمة في وقت ما عن تعلّق آغنيس بشخص مجهول.

وتجيبه العمة عن اعتقادها بقرب زواج آغنيس من ذلك الشخص المجهول !

ويرتدُّ إلى الوراء ، ويجلس مع العمة ، ثم يقول :

ـــ ليباركْها الله ! وليباركْ زوجَها !

ويخرج من المنزل ، ولكن إلى آغنيس ، حيث يخطبها .. ويقضي الليلة في كنتربري.. وفي الصباح يصطحبها معه إلى البيت ليزفَّ البشرى إلى عمته بتسي. ويتمّ الزواج بعد خمسة عشر يوماً، ويقتصر الحفْلُ على الأهل والأصدقاء المقرّبين .

الزواج السعيد والنهاية السارة :

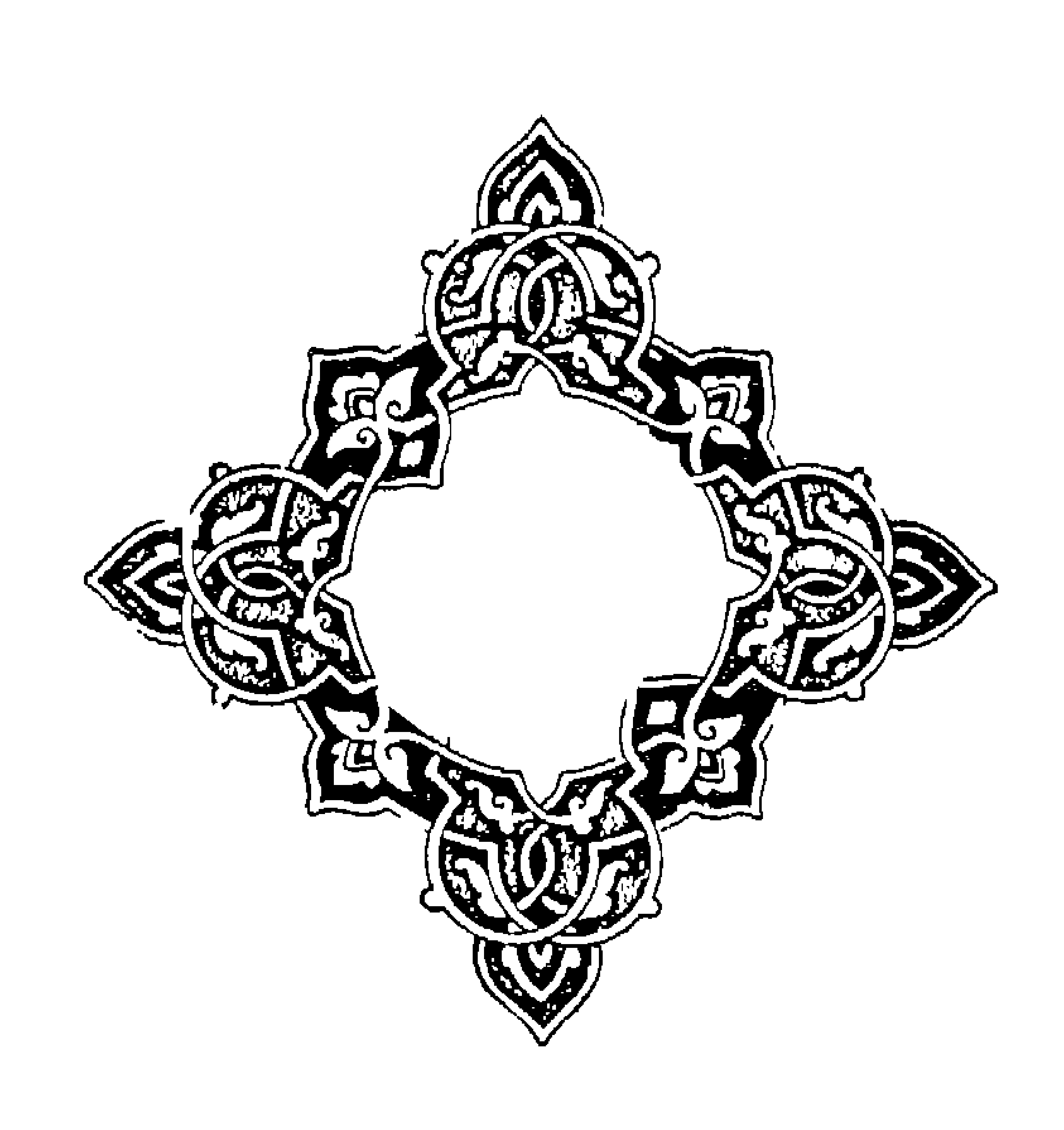
وتمرُّ الأيام سعيدةً متراكضةً ، مفسحةً في المجال لأيام غيرها أكثر سعادة وإشراقاً للزوجَين المتفاهمين ، العائشَين في برجٍ من الهناء والطمأنينة ، وتُغدق عليهما الحياةُ بكؤوس مُترعة من عَذْبِ رحيقها ، وأروع أطايبها .. ويخيّم الحبّ فوق سماء علاقتهما ، وصفاء مودّتهما ..

وتمضي السنوات على هذا المنوال من الحب والسعادة ، واتساع شهرة دايفيد وتعاظم ثروته . ويُرزق الزوجان بثلاثة أبناء .. ويتحقّق حلمُ العمة بتسي أيضاً .. فها هي ترى بتسي الصغيرة التي كانت تريدها بدلاً من دايفيد حينما جاءت به أُمّه إلى الحياة ..

لقد اطمأنت العمة أخيراً إلى وجود مخلوقة من لحم ودم ،

باسم بتسي تروتوود .

وبعد سنوات تختفي جميعُ الوجوه من الحيـــاة ، ويبقى وجهُ آغنيس وحده يمضي معه على الطريق في رحلة العمر ، ويملأ عليه الحياة بهجةً وسلاماً ..



طبع على مطابع دار الشمال الإخـراج : م .جمال الصوفي



أحباءنا عظماء المستقبل ...

لئلا تنقطع سلسلة عظماء التاريخ.. فتضيع حلقة من سير الكبار الذين قادوا أممهم إلى النصر، وبنوا الأمجاد وكانوا مشاعل نور ... نذرنا على أنفسنا أن نقدم لكم في كل كتاب من هذه السلسلة الممتعة الشيقة شخصية إنسانية فذّة، من مختلف الأمم والشعوب، لأن العظام ليسوا ملك شعب أو جنس، بل هم نبراس علم وسُلّم حضارة وقدوة حسنة للبشرية جمعاء.




طرابلس لبنان : ص.ب ٢ - تلكس Issam ٤١٩٧٨ LE
هاتف : ٤٣١٩٥٢ (٠٦) - ٤٤١٢٨٢ (٠٦) - ٦٠٢٠٦٤ (٠٦)